
د. أحمد خالد توفيق
الغث
من القول
كيان كورب
دار ليلى

د. أحمد خالد توفيق

الغث من القول

كيان كورب
(دار ليلى للنشر والتوزيع)

الكتاب:

الغث من القول

المؤلف:

د. أحمد خالد توفيق

الغلاف:

محمد محمود

التنفيذ الفني:

حسام سليمان

التدقيق اللغوي:

كيان كورب
(دار ليلى)

★★★

إدارة التوزيع:

أ. عبد الله شلبي

الإشراف العام:

أ. محمد سامي

★★★

رقم الإيداع: 2010/22805

الترقيم الدولي: 978-977-6386-16-7

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11

هاتف: 33370042(02)(002)-3885295(012)(002)

البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

د. أحمد خالد توفيق

الغث من القول

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

الفهرست

مقدمة

الغـث – حـسب مختـار الـصحاح – هـو اللحـم الهزيـل أو الحديث الرديء الفاسد، وهو كما نـرى عنـوان مناسـب ومغـر جـدًا لسلسلة المقالات هذه. من طرق الـدفاع الخبيثـة عن الـنفس أن تكـون قاسيًا مع نفسك، فهـذا يجعـل خـصمك يـدخر جهـده منـذ البدايـة. تذكرت فيلم رسوم متحركة قديمًا، كان بطلـه كلمـا حوصـر بفتـوات يريدون ضربه يوجه لنفسه علقة ساخنة جدًا، ممـا يجعلـهم يهـزون رءوسهم في حيرة ويرحلون..

هل يعني هذا أنها غثة فعلاً؟.. بالطبع لا.. لو كنت موقنًا منذ البداية أنها غثة كلـها لما طلبـت منـك أن تقرأهـا، فمـن الـصفاقة أن

أطلب منك قراءة شيء أعتقد أنه خال من النفع. فيها لحم وبعضها ممتع أو يدعو للتفكير..

هل يعني هذا أنها مقالات رائعة؟.. بالطبع لا.. فيها الكثير من الصدق والحرارة، لكن هذا لا يمنحها تاج الروعة أو عرش التميز.. إنها كما قلت تحمل مزية الصدق، وتحمل مزية أن هناك جهات نشر طالبتني بها، وتكرمت بنشرها. وهناك قراء تكرموا بالبحث عنها ومتابعتها ومناقشتها. هذا جعل لها قيمة ما.

نشرت هذه المقالات في أماكن متفرقة؛ وإن كان معظمها في جريدة الدستور قبل اغتيالها، وفي موقع (بص وطل) على شبكة الإنترنت. يمكنك أن تجد كل حرف كتبته على شبكة الإنترنت، لكنني في النهاية ابن الكتاب وربيبه، ولا أؤمن أنني كتبت شيئًا ما لم أمسك به مطبوعًا على ورق جميل.. تضع خطًا أو تثني صفحة أو تسكب كوب الشاي على الصفحة. هذا هو اختراع الخواجة (جوتنبرج) في كامل عنفوانه ومجده. لا يمكنك أن تشعر بالشيء ذاته في الفضاء السايبري حيث أفكارك مجرد ومضات الكترونية وتباديل بين علامة الواحد والصفر.. دعك من الحاجة البشرية

الطبيعية لأن تضع كل أولادك تحت سقف واحد.

أما عن الانتقاء من هذا الكم المرعب من المقالات، فقد كان سهلاً نسبيًا.. هناك مقالات عديدة بردت مواضيعها التي كانت ساخنة جدًا وقتها (مثل مقالات انفلونزا الخنازير العديدة)، وهناك مقالات عرفت يقينًا أنني كنت مخطئًا عندما كتبتها، وهناك مقالات وجدتها سخيفة جدًا. برغم هذا ظل كم المقالات الصالحة للنشر هنا كبيرًا جدًا، لذا لجأت لطريقة اختيار علمية دقيقة هي القرعة!.

أرجو أن تروق لك هذه المقالات أو على الأقل تجد فيها جديدًا. فإن لم تجد فلا تنكر أنني أنذرتك.. .!

د. أحمد خالد توفيق

aktowfik@hotmail.com

القسم الأول

وفيه حديث عن سياسة البلاد،

وما استجد في حياة العباد

أوباما والذيل اليهودي

منذ بضعة أسابيع قلت إن فوز ماكين بالانتخابات شبه مؤكد، واستندت في هذا إلى رأي مفكرين كبار قالوا إن أمريكا ليست مهيأة بعد لرئيس أسود أو رئيس امرأة، وإنه في ساعة الجد سوف يتم انتخاب الأبيض الانجلوساكسوني البروتستانتي WASP.. أي (ماكين) باختصار شديد. طبعًا كان هذا قبل الأزمة الاقتصادية وسارة بالين وعوامل أخرى كثيرة جعلت فرصة أوباما شبه مؤكدة في الفوز، ما لم تحدث معجزة أو يتورط أوباما في فضيحة جنسية خلال هذه الفترة القصيرة. الخلاصة إن الاعتراف بالحق فضيلة بلا شك..

غير أن أوباما نفسه مقلق.. ها هي ذي الانتخابات لم تبدأ بعد والرجل يبذل الوعد تلو الوعد لإسرائيل في سخاء، حتى وصفه

روبـرت فيـسك سـاخرًا بأنــه (يبـدو كأنــه يرشـح نفـسه للكنيـست الإسرائيلي لا رئاسة الولايات المتحدة). ربما أكون مخطئًا كالعـادة، لكن هل فيسك يتكلم بما لا يعلم ؟

كبرهان على هـذا الكـلام، ظهـر مـؤخرًا إعـلان لحملـة أوبامـا منشورًا في موقـع أمـازون ضـمن إعلانـات مدفوعـة عـن كتـاب (اللـوبي الاسرائيلي). اضطر أوباما لرفع هذا الإعلان بعد مـا كتـب عنـه محـرر نيويورك صان. أكد أوبامـا أن الإعـلان ظهـر هنـاك بطريـق الخطـأ.. لم يقرأ الكتاب لكن ما سمعه عنه يجعله لا يتفق مع مؤلفيه. مذعورًا أكـد أن له وجهة نظر مختلفة عن الكتاب وأنه يؤمن بمساندة إسـرائيل بـلا حدود.. وهو يرى أن ما يقال عن كون مساندة إسـرائيل تـسيء لـسمعة أمريكا كلام فارغ.. هكذا يؤكد أوباما ما قاله فيسك من قبل..

مع الانتخابات الأمريكية يكثر الكلام عن اللوبي اليهـودي في أمريكا. لفظة لـوبي في حـد ذاتهـا مـشتقة مـن رواق Lobby البرلـمان البريطـاني الـذي كـان الأعـضاء يجتمعـون فيــه قبــل المجــادلات البرلمانية. وحجم هذا اللوبي اليهودي يتراوح بين كونه يدير مصائر العالم من خلف الستار في ضوء الـشمعدانات الـسباعية، وبـين كونــه

غير موجود على الإطلاق كما يرى البعض. هل إسرائيل تحرك الولايات المتحدة بيد قادرة اسمها اللوبي اليهودي ؟ أم أن إسرائيل هي نفسها يد الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، تنفذ سياستها بكفاءة وقدرة كما يرى (هيكل) ؟

الانتخابات الأمريكية تعيد هذا السؤال للأذهان، وقد تذكرتْ قناة الجزيرة ذلك الكتاب المهم (اللوبي الاسرائيلي) الذي كتبه ميرشايمر ووالت عن اللوبي الاسرائيلي، وصدر عام 2007 كتطوير لورقة بحثية صدرت عام 2002. الأول أستاذ علوم سياسية في شيكاغو، ومعارض عنيف لحرب العراق و له مقالان مهمان عنهما هما (الحرب غير الضرورية) و(إبقاء صدام في الصندوق)، وكرر في كل مناسبة أن الحرب على العراق هدفها الأوحد جعل إسرائيل أكثر أمنًا. الثاني أستاذ علاقات دولية في هارفارد. من حين لآخر يجرؤ مثقف في العالم الغربي على أن يعلن إن الامبراطور عار تمامًا.. طبعًا يتحدى بذلك تهمة معاداة السامية الجاهزة لتطير الأعناق وتقطع الأرزاق. وحتى اليهود الذين ينتقدون إسرائيل يصير اسمهم (اليهود الذين يكرهون أنفسهم). حتى استعمال مصطلح اللوبي الاسرائيلي

نفسه يتهمك بمعاداة السامية.

هذا الكتاب يقول باختصار إن مجموعة المصالح التي تشكل اللوبي الاسرائيلي تدفع الولايات المتحدة دفعًا إلى تشجيع الجرائم ضد الفلسطينيين ومعاداة سوريا وإيران وتجاهل الولايات المتحدة لمصالحها الجوهرية. هو لوبي مثل أي لوبي آخر يهدف لمصلحة أعضائه، لكنه يفعل ذلك بكفاءة عالية جدًا. وهذا اللوبي أقنع الشعب الأمريكي أن مصالح إسرائيل ومصالح الولايات المتحدة هما نفس الشيء. إن منظمة (إيباك AIPAC) أو لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية تسيطر بقوة على الكونجرس، مع 34 مؤسسة سياسية أو اقتصادية مما يمنح اللوبي قوة غير معتادة، مسلحًا بتهمة معاداة السامية، لكن هذا اللوبي لم يستطع غزو الساحات الأكاديمية على كل حال، برغم أن اللوبي يراقب بعناية أبحاث وكلام أساتذة الجامعات. ويجب أن نتذكر أن جامعة هارفارد أصرت على محو شعارها من أية نسخة من هذا البحث، كما أبرزت بوضوح أن الدراسة تعبر عن رأي كاتبيها ولا علاقة لها بها.

ليس اللوبي مكونًا من اليهود فقط، بل يتضمن عددًا هائلاً من

المبشرين الإنجيليين ومنهم بات روبرتسون ورالف ريد. هؤلاء يؤمنون بأن إسرائيل نبوءة إنجيلية لابد أن تتحقق، والعرب الأوغاد يمنعون تحقق هذه النبوءة. هناك كذلك شبكة من الإعلاميين اليهود في وسائل الإعلام. ومعظم رجال اللوبي يؤمنون بسياسات حزب الليكود ولهم دور بالغ الأهمية في تحريك الحرب على العراق. بالتالي أمريكا تحارب وتعاني وتدفع من أجل إسرائيل حاسبة أن هذه مصلحتها. اسرائيل تلقت مساعدات قدرها 140 مليارًا منذ الحرب العالمية الثانية وهي أكثر طرف ينال مساعدات أمريكية في العالم، دعك من أنها الطرف الوحيد الذي ليس عليه أن يبرر أوجه إنفاق المعونة.. يعني هي حرة تمامًا. ومن أجل اسرائيل استعملت الولايات المتحدة حق الفيتو 32 مرة منذ عام 1982 حتى اليوم.

هذه العلاقة أفسدت تمامًا علاقات أمريكا مع العالم العربي (هذا صحيح لكن على مستوى الشعوب طبعًا) برغم أن إسرائيل عبء حقيقي على أمريكا.. طفل مزعج قد تضطر أمريكا إلى تركه في البيت حتى لا يحرجها كما حدث في حرب الخليج الثانية.

هذا ما قاله الأستاذان الأمريكيان.. بذكاء تجنبا استعمال

لفظة (لوبي يهودي) وفضلا استعمال (لوبي إسرائيلي) حتى تنتقل الإيحاءات إلى السياسة لا الدين، وهما يذكران الحقيقة المعروفة: أمريكا ليست حليفة إسرائيل ضد الإرهاب، بل هي تواجه الإرهاب لأنها حليفة إسرائيل!. سجل إسرائيل في الإبادة العرقية ليس أكثر نصاعة من أعدائها.. وشامير الإرهابي الذي اغتال (فولك برنادوت) وسيط الأمم المتحدة للسلام، صار رئيس وزراء اسرائيل وقال بوضوح تام: اليهودية لا ترفض الإرهاب كسبيل للصراع.

هناك من امتدح الكتاب باعتباره دعوة للصحوة أو (مكالمة إيقاظ)، وأقر ساسة كثيرون منهم برجينسكي بصحة هذا الكلام. قال أحدهم : "لن يكون هناك سلام في الشرق الأوسط ما لم تنظر أمريكا بصراحة لحقيقتها المذكورة في هذا الكتاب المحزن". وقال أحدهم: "البحث يتضمن الكثير مما هو حقيقي والقليل مما هو جديد.. ". عامة دعا مشجعو الكتاب إلى نبذ تهمة معاداة السامية الجاهزة.. لا مشكلة في انتقاد إسرائيل إذا كان المنتقد لا يسلب اسرائيل حقها في الوجود. يقول آخر: "الحملة المسعورة على الكتاب دليل آخر على أن كلامه صحيح.. "

يقول جوزيف مسعد أستاذ السياسة العربية في جامعة كولومبيا: هل اللوبي الاسرائيلي قوي فعلاً؟.. لقد واجهت قوتهم المروعة ومحاولاتهم لطردي من الجامعة، لذا أجيب: نعم.. لكن هل اللوبي يتحكم في سياسة أمريكا نحو الفلسطينيين؟.. أقول لا.. أمريكا سياستها استعمارية أصلاً.. وهي لا تساند من حركات التحرر إلا ما يناسب سياستها..

أما من هاجموا الكتاب فقالوا إنه مجرد تنويع على نظريات المؤامرة البلهاء المعتادة.. إن فرضية أن الذيل اليهودي يحرك الكلب الأمريكي تبسيط لا تتحمله الأمور. أحدهم قال: هذا يفترض أنه لو تخلت أمريكا عن سياستها المساندة لإسرائيل لأعلن بن لادن التوبة، وعاد ليعمل في المقاولات مع أسرته!. من الغريب أن من ضمن معارضي الدراسة (ناعوم تشومسكي) نفسه الذي رأى أن البحث انتقائي جدًا. قالوا كذلك إن الكتاب ابتزاز أخلاقي وإن البترول وليس اسرائيل هو ما يحرك سياسة أمريكا في المنطقة. هذه نقطة رد عليها المؤلفان بسهولة: لو كان هذا هو الحال لساندت أمريكا الفلسطينيين ولكانت صديقة إيران الحميمة.

هناك بالطبع لوبي عربي في أمريكا.. تصور هذا!.. البداية هي الرابطة القومية للعرب الأمريكيين NAAA التي تكونت عام 1972، ثم ظهرت جمعيات أخرى كنتيجة للكراهية المتزايدة ضد العرب مع حرب 1973 وحظر البترول. قال جيمس زغبي إن اللوبي العربى يعاني مشاكل في التنسيق والانتخاب.. بالأحرى هو غير موجود تقريبًا.

الانتخابات الأمريكية على الأبواب، وسوف نرى ونسمع.. لكن سياسة أمريكا ثابتة تجاهنا ولن تتغير ما لم نتغير نحن، سواء هز الكلب الذيل أم هز الذيل الكلب.

نعيب زماننا

وقف الضيف الأفريقي الكبير ليلقي كلمته بالفرنسية في افتتاح ذلك المهرجان الرياضي أمام الجمهور الغفير الذي يملأ المدرجات. هنا بدأت ظاهرة غريبة تتكرر. بدأت خافتة ثم راحت تعلو: مع نهاية كل جملة من خطابه قد يقول لفظة مثل (آ فوه) فتردد المدرجات (أووه).. يقول (ليبرتيه) فتردد المدرجات (إيبيه). وهي طريقة تظرف شهيرة كأنها نوع من صدى الصوت يمارسها الشباب في المدارس عندما يلعب بعقولهم شيطان التهريج، والغريب أن الصوت لم يصدر من مجموعة ما بل هو رد فعل جماعي خرج من آلاف الحناجر ويستحيل تجاهله..وتصلب الضيف للحظة وهو لا يفهم ما يحدث بالضبط، وإن أدرك أنه يُهان. وكان الوزير عبد المنعم عمارة يقف بجواره، فراح

يضحك في عصبية ليمتص حرج الموقف. كان الأمر واضحًا.. هذا الضيف الأفريقي لم يؤذنا أو يشتمنا ولم يره أحد من قبل، وإنما الجماهير المصرية تسخر منه لأنه يتكلم الفرنسية ولأنه أسود لامع البشرة كالباذنجان. وهو ما ذكرني برأي لكاتب أمريكي قال فيه: "العرب من أكثر من قابلت عنصرية وتعاليًا على السود". ضايقني هذا الرأي وتمنيت أن يكون الكاتب حمارًا لكني أرى شواهد يومية عديدة على صحته. حدث هذا الموقف منذ عشرة أعوام ونيف، ورأيته على شاشة التلفزيون، فجعلني أتساءل عن هذا السلوك الجماعي غير الحضاري الذي لم يصدر عن قلة منحرفة وإنما من مدرجات مليئة، وعلى شاشات التلفزيون في العالم كله.

تذكرت ذات المشهد من جديد عندما نزل الفريق التونسي بالكأس من فوق المنصة، ورأينا بوضوح أن هناك من هاجم حامل الكأس أو قذفه بشيء، ثم انتقل التلفزيون إلى لقطة أخرى سريعًا. حدث هذا بينما المذيع يتكلم عن التحضر الرياضي الذي قابل به المصريون الهزيمة!

هناك مثال آخر أشعرني بخجل شديد، وهو مثال قدمته قناة

ناشونال جيوجرافيكس: سائح أمريكي يجرب حظه مع سائقي التاكسي في مصر وفي الصين.. في البداية يريد أن يرى الأهرام فيقابله سائق التاكسي المصري الذي يطلب منه مائتي دولار مقابل يوم من (الخدمة السياحية الممتازة)، ويقول له بإنجليزية التراجمانات الشهيرة: "مي سبيك انجليش يا خواجة. يو وونت سي بيراميدز مي شو يو بيراميدز ". ينصرف السائح فيناديه السائق ويقبل على مضض أن يأخذ مائة دولار. يركب السائح مع سائقنا وله طلب واحد بسيط هو أن يرى الأهرام. لكن السائق يأخذه إلى أماكن غريبة جدًا.. يرغمه على صيد السمك في النيل لمدة ساعتين، ثم يأخذه لبيت الأسرة ليشرب معه الشاي بالنعناع بالقوة، ثم يجلس معه على المقهى لشرب الشيشة، والسائح يردد (بيراميدز) بلا توقف. يقول له السائق: "يو وانت سي ماتش يا خواجة؟.. أهلي.. أهلي... جود ماتش "، ويأخذه بالقوة لمشاهدة مباراة للأهلي في الاستاد لا تهم السائح في شيء، وفي النهاية وقد أوشك اليوم على الانتهاء يأخذه ليريه الأهرام من على بعد ثلاثة كيلومترات تقريبًا ويطلب منه أن يذهب وحده ليشاهدها ويعود له. هنا يفهم السائح الأمريكي أن هذه

هي (الفهلوة المصرية) المعروفة فالرجل لا علاقة له بالسياحة وهو خائف من الاقتراب حتى لا تخرب شرطة السياحة بيته. فقط وضع للسائح برنامجًا عشوائيًا باعتباره طفلاً يرضيه أي شيء. نصف الحلقة الثاني مع سائق صيني في بكين، وأترك هذا الجزء لخيالك.. فقط أقول إن السائق تقاضى مائة دولار هو الآخر، لكن كسعر نهائي بلا فصال.. وجعل السائح يرى كل شيء ممكن في يوم واحد، وأخبره منذ اللحظة الأولى بما لا يستطيع أن يقدمه له.

ما أردت قوله هو إن الشخصية المصرية تغيرت جدًا، ولم تعد على ما يرام منذ أعوام.

دكتور (علاء الأسواني) في قصته (الذي اقترب فرأى) قال آراء كثيرة صادمة عن الشخصية المصرية لم نكن نجرؤ على الاعتراف بها جهرًا، لكنه قالها على لسان بطل القصة، وإن كانت حرارة التعبير لا تترك لديّ شكًا في أن القصة تحمل جزءًا ولو كان ضئيلاً من رأيه الخاص.

سألني شاب مهموم مكتئب ككل شباب هذه الأيام : "هل

موضوع حضارة 7000 سنة هذا صحيح ونحن فقدنا هذه الحضارة؟.. أم أنها أكذوبة رددناها حتى صدقناها ؟". قلت له: "هذا جزء مهم من تغيرات الشخصية المصرية: إنها فقدت الثقة بنفسها، ولم تعد تؤمن بالماضي ولا تعيش الحاضر وتخاف المستقبل.. كل شعب في العالم يقف على أساس متين يخوض حروبه وصراعاته وهو راسخ القدمين فوقه، حتى لو كان هذا الأساس خائبًا مثل تاريخ 300 سنة تزهو بها أمريكا، أو وهميًا مصنوعًا مثلما فعلت إسرائيل. لكن لابد من أساس تقف عليه وإلا فأنت هالك".

هل السبب هو الفقر والضغوط الاقتصادية؟.. ربما.. لكن يجب ألا ننسى أن ذلك السائق الصيني لم يكن أكثر ثراء. هل هو القمع السياسي؟.. هناك دول مقموعة أكثر لكن أهلها يحتفظون بدرجة من التحضر واحترام الآخر و(قلبهم على بعض). هل هو الزحام؟.. لسنا أكثر ازدحامًا من الصين واليابان وإندونيسيا على ما أظن.. ربما هي تلك الأسباب جميعًا. على كل حال يمكنك أن تعدد المظاهر التي طرأت على الشخصية المصرية فلا تستطيع التوقف:

1- ظاهرة السفينة الغارقة: الشعور العام بأن السفينة تغرق أو غرقت يجعل الشخصية المصرية تتعامل بمنطق (ما جاتش عليا أنا). هكذا يحاول كل واحد جاهدًا أن يسرق في مكان عمله أو دائرة نفوذه، فإن لم يسرق فهو لا يشعر بأية غيرة على المال العام، وقد ذكرت منذ فترة مثال العريس الذي يتعمد إضاءة أنوار الشقة قبل أن يغادرها ليكلف الدولة بعض المال. عندما يبدد المصري ماله على مكالمات الموبايل فتنصحه أنت، يذكرك بالمليارات التي تخرج بلا ضابط، ومشاريع القطاع العام العملاقة التي تباع بسعر 3 علب سجائر مصرية. ويقول لنفسه: ما دامت السفينة تغرق فمن الحرام ألا أظفر منها ببضعة مسامير ولوح خشب أو لوحين. لو أخذ كل مصري مسمارًا من السفينة فكيف ستبقى طافية ؟

2- ظاهرة مصعد العمارة: الشعور بأنك تُخدع وأنك تدفع أكثر من الآخرين.. كل من يملك شقة في بناية مشتركة ذات مصعد، يعرف كيف أن السكان يمتنعون عن الدفع، وكل واحد يشعر بأنه دفع أكثر من الآخرين دون أن يتلقى خدمات. هكذا يتلف المصعد فلا يتحمل أحد المسئولية. أحيانًا يبدو مبلغ خمسة جنيهات

مرهقًا مجحفًا، بينما هم يدفعونه بسهولة تامة في مكالمة موبايل. هذا يتم على نطاق أوسع في كل المجالات.

3- ظاهرة أنا أولاً: الرحمة والإحساس بالآخر صارت شحيحة في القلوب. عندما تكتشف أن مصانع الحلوى تستولي على ألبان الأطفال لتصنع منها الحلوى، وليذهب الرضع إلى الجحيم. البلد الوحيد في العالم الذي ينخفض فيه سعر الدولار فيشتعل سعر كل شيء. هذا يعني أن الأزمة ترجع للجشع كذلك. أسعار الأراضي تشتعل.. أسعار العقارات تشتعل.. عندما يصير سعر كيلو اللحم أربعين جنيهًا (وقت كتابة المقال) فلا يمكن تبرير الأمر بسعر الأعلاف، وإنما هي الشخصية المصرية الجديدة التي تكره ألا تضيق على الآخرين في لحظات كربهم. لا تنس أن الكبار المسيطرين على السوق هم مصريون كذلك!

* * *

قال لي صديقي: "خذ الحذر.. فلربما فهم أحدهم من كلامك أنك تنتقد الشخصية المصرية ذاتها". ضحكت كثيرًا من حسن نيته لأنه يفترض أن الناس لا هم لها سوى قراءة ما أكتب، وكأن

المظاهرات الغاضبة ستخرج غدًا تقول: "لا.. لسنا كما يظن هذا الرجل". الحقيقة أنني أنتقد الشخصية المصرية الجديدة فعلاً وأنتقدها بشدة، مع العلم بأنني مصري جدًا ولا أجد نفسي على ما يرام أنا الآخر. وما أقوله هنا قيل من قبل في صورة راقية جدًا في كتاب (ماذا حدث للمصريين) لد. جلال أمين، كما لا يزيد في أبسط صوره على ما يقوله أي سائق تاكسي تركب معه غدًا: "الناس بقت وحشة قوي يا باشمهندز". فقط أقولها بالفصحى مع بعض الأرقام..

كنا نتحدث عن تلك الظواهر التي تطالعنا كل يوم وتوقفنا عند الظاهرة رقم :

4- ظاهرة (نحن أكثر منكم مالاً وأعز نفرًا): وهذه يمكن أن نضمها للظاهرة التالية.....

5- ظاهرة (الفلوس كتير والحمد لله): نعرف أن تقرير التنمية البشرية الصادر عن برنامج الأمم المتحدة للتنمية عام **2006** يؤكد أن **4.1**٪من المصريين يجنون دولاراً في اليوم و **43.9**٪ يجنون دولارين في اليوم وأن **16.7**٪ من المصريين تحت خط الفقر، حيث

تحتـل مـصر المركـز 44 بـين دول العـالم. وسـط كـل هـذه الـضغوط الاقتصادية يمكنك أن تقرأ ما يلي في أي مكان (معظم الأرقـام التاليـة من جريدة البديل عدد 31 أغـسطس 2007): مليـار جنيـه ينفقهـا المصريون علي الكـلام في المحمـول حـسب دراسـة أجراهـا د. محمـد صفوت فاضل بجامعة المنوفية، وتوصل فيها إلي أن تكلفـة المحمـول في الأسـر المتوسطة تـتراوح بـين 25 و50 جنيهـاً شـهرياً، تزيـد في الأسر الثرية لتتراوح بين 120 و500 جنيه، وأشارت الدراسة إلي أن 74٪ من المصريين يستخدمون هواتفهم في الثرثرة و11٪ في بـرامج المسابقات. وأكد د.فاضل أنه إذا تم توفير خمسة مليارات جنيـه مـن التي تنفق علي المحمول لمدة خمـس سنوات، فـستتخلص مـصر مـن مشكلات البطالة وتوابعها. عام 2005 أرسل المصريون رسائل بنحو 600 مليون جنيه ويتصلون يوميا بما يزيد علي 22 مليون جنيه.

هـذا شـعب مـن رجـال الأعمـال المهمـين إذن.. لكنـك تعـرف نوعية الرسائل المتبادلة (منـه لله الريـري اللـي خـلاك تكـبر علينـا) ونوعيـة المكالمـات (انـتي صـوتك بيقـول انـك تعبانـة.. لا والله مـش تعبانة.. لأ أنا حاسس إنك تعبانة).

الفياجرا تكلف ما يقرب من ملياري دولار سنويًا ويستعملها أكثر من ثلاثة ملايين مصري. هذا شيء مفهوم مع شعب محبط قضت الهرمونات في الطعام والهواء الملوث والهموم على رجولته.

الدجالون لهم نصيب كذلك.. فقد كشفت دراسة حديثة للمركز القومي للبحوث الجنائية والاجتماعية ان المصريين ينفقون أكثر من 10 ملايين جنيه سنوياً علي الدجالين بسبب 275 خرافة على الأقل تتحكم في حياة المصريين. نفس الرقم مذكور في أماكن أخرى على أنه 10 مليار وهو ما سنتكلم عنه في الظاهرة السادسة. أما بالنسبة للدماغ التي يحترمها المصري جدًا كأنها دماغ أينشتاين أو إنريكو فيرمي، فقد أكد تقرير الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء أن المصريين ينفقون علي السجائر والدخان نحو 4 مليارات جنيه. عدد من المستوردين المصريين استوردوا أطعمة غذائية خاصة بالقطط و الكلاب تقدر قيمتها بمليوني دولار خلال عام 1999 أما الآيس كريم فقد استوردت مصر منه خلال نفس العام ما قيمته 5 ملايين دولار.

أكدت دراسة أعدها مركز الأبحاث بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية أن إنفاق المصريين أثناء شهر رمضان يصل إلي 44 مليار

جنيه!. كذلك تشير الإحصاءات الرسمية إلي أن المصريين ينفقون حوالي 3 مليارات دولار في رحلات الحج و العمرة أي ما يعادل تقريباً دخل مصر السياحي كله وأكثر من عائدات قناة السويس، وما يعادل إجمالي قيمة الصادرات المصرية مرة ونصف المرة..!. وبرغم كلام علماء كبار جدًا من وزن القرضاوي وابن باز وسواهما عن فقه الأولويات، وما قالته دار الإفتاء المصرية: "ليس لله حاجة في الطواف ببيته من شخص يترك إخوانه البائسين فريسة للفقر والجهل والمرض؛ لأن المسلمين جميعًا يجب أن يكونوا يدًا واحدة يتعاونون على البر والتقوى". لكننا نسمع الفتوى التي نريدها فقط.. وبالطبع يذكرنا الخبير الاقتصادي د. أشرف دوابة بأن من يطالبون بالتقليل من تلك الشعائر لأسباب اقتصادية عليهم عمل نفس الشيء مع الليالي السياحية وثقافة الترف. هذا منطقي.. ولو انتشر وباء من السفر للسياحة في إيطاليا لكان علينا أن نحذر من هذا السلوك. حتى استفادة السعودية ذاتها من هذا الرواج — والكلام للخبير الاقتصادي – غير حقيقي لأن المستفيد الأكبر هي الدول المنتجة للسلع والخدمات التي تتداول في تلك الأماكن المقدسة، حتى المسابح

والمصليات التي نصلي عليها من غير صنع المسلمين. أي أننا نجوع كي تأكل الصين.

طلبت ذات مرة من أحد هواة تكرار العمرة أن يحسب المبلغ الذي سينفقه، وتعهدت له بأن يصل هذا المبلغ كاملاً إلى مرضى الكبد الفقراء، فكان أن فر مني ولم يعد يطيق رؤيتي. الأمر إذن ليس تقربًا من الله قدر ما هو رغبة في (تغيير الجو) ولربما لمسة من الإدعاء والتفاخر، وقد سمعنا عن ذلك المسئول الكبير – في السجن الآن – الذي كان يتقاضى الرشوة في صورة رحلة عمرة له وزوجته!.

الدروس الخصوصية تلتهم 2.4 مليار جنيه سنوياً، ولا أعني أن كل المدرسين ملائكة لكنه لو صاروا جميعًا كذلك فلن يحدث فارق، لأن ثقافة الدروس تسللت للشخصية المصرية وهي خليط من التفاخر والتقليد. لهذا نجد أن الطلبة لا يعطون المدرسة أية فرصة، وقد نشرت جريدة الدستور أن نسبة التغيب في المرحلتين الاعدادية والثانوية بلغت 75٪ بعد شهرين فقط من بدء الدراسة.. يعني قبل أن يكتشفوا أن المدرسة لا فائدة منها! المجموعات التي تنظمها بعض المدارس بأسعار رمزية لا تنجح لأنها تقضي على عنصر

التفاخر والرغبة في الظهور بمظهر من لا يدخر مليمًا من أجل أبنائه.

لا أعرف كم ينفق الناس على حفلات الزفاف وطقوس العزاء، لكني أعرف أسرًا أسعد لحظة في حياتها هي موت قريب لها، لأن هذا يتيح لها نشر نعي ضخم في الصحف تستعرض فيه ترسانتها من الأسماء المهمة.

6- ظاهرة (كله بالبركة): في الواقع هناك تضارب أرقام هائل لهذا اخترت الأرقام الأقل في كل شيء. سوف يجد من يبحث أن الرقم يُذكر في مكان ويذكر عشرة أضعافه في ذات السياق في مكان آخر، ولا فارق بين مليار ومليون.

7- ظاهرة (الموت للرأي المخالف): الناس تقبل رأيًا واحدًا فقط هو الرأي الذي يناسب قناعاتها المسبقة.. ذات مرة وقفت في طابور في مصرف حكومي عتيق الإدارة، ولاحظت أن الموظف يعمل كالنحلة ولم يلتقط أنفاسه لحظة، ولا يجد الوقت الكافي ليمسح عرقه، بينما الطابور الغاضب يستطيل. قلت ملحوظة عن أن هذا

الموظف يؤدي عمله جيدًا، فكاد الطابور يمزقني وكادوا يلعنون أسلافي. لو قلت إن الموظف بطئ كسول وإن هذا تهريج لا يمكن أن يحدث في الخارج، فلسوف يرضون عنك. من الخطأ القاتل أن تقول إن خلل التعليم في مصر يقع جزء من أسبابه على التلاميذ كما هو على المدرسين، لأنك بهذا تستوجب اللعن. لكن لو قلت إن المدرسين سيئون لأثلجت صدر الناس.

8- ظاهرة (إن عاديت فلتعاد جدًا): كل من يختلف معك هو على الأرجح ملحد أو عميل للغرب أو شاذ جنسيًا.. بالنسبة للنساء ينحصر الاتهام في تهمة واحدة هي العهر. يمكن لكل من يطالع المدونات أن يدرك كم الصديد المحتشد في الصدور ويخرج عندما ينعدم الرقيب. عرفت قصة سيدة حازمة تولت أحد الأجهزة الحكومية المهمة، وبما أنها باترة قاطعة فقد كثر أعداؤها. كانت عجوزًا لا تصلح لإشاعات العُهر، لذا اتخذت الإشاعة شكل قصة شهيرة جدًا حول أنها دخلت لتجد العاملين معها يقرءون القرآن، فمزقته – والعياذ بالله – ووطأت صفحاته لأنهم يضيعون وقتهم. عندما سمعت هذه القصة قلت لهم: لو أن زعيم المافيا شخصيًا كان في

مكانها لما جرؤ على ذلك. لكن هذا النوع من الإشاعات له قدرة خارقة على التوالد الذاتي ويصدقه الجميع، ومن الواضح أنه ضرب تحت الحزام بلا رحمة ولا شرف تعامل.

9- ظاهرة (القسوة): تكلمت في مقال سابق عن التعالي العرقي على السود.. ما أخبار اعتداء المخدومة على خادمتها الفليبينية وضربها وحبسها؟.. وماذا عن خادمتها الريفية الطفلة الضعيفة المصابة بفقر الدم؟.. هذه الأخبار صارت ركنًا ثابتًا في الصحف. دعنا نضف لهذا القسوة على الحيوانات وهي تنم عن ثقافة كاملة. هل رأيت في قناة الجزيرة تاجر الفراخ الذي يسكب الكيروسين على الكتاكيت الحية ثم يشعل فيها النار ويراقبها في استمتاع وهي تحترق؟. كم مرة سمعت عن الذي أغرق كيسًا مليئًا بكلاب صغيرة في الترعة؟.. الأطفال غير طبيعيين لو لم يجروا الكلاب الصغيرة بحبل في عنقها. في هذا المناخ الغارق في التدين لماذا ينسى الناس أنه (في كل ذات كبد رطبة أجر)؟. كنت في معبد الكرنك ذات مرة ورأيت أقذر وأتعس كلب رأيته في حياتي.. كلب

أجرب امتلأ جلده بالقروح والدمامل وسال الدم منها.. وكان يجر قدمًا مكسورة في مشهد مقزز، حتى إنني فكرت أن أريحه وأريح الناس منه بأن أحطم رأسه بحجر.. هنا رأيت سائحة ألمانية تتحايل عليه حتى أقنعته بأن يرقد قرب قدميها، وراحت تربت على رأسه وتقدم له لقيمات من كيس طعام تحمله. هزني هذا المشهد.. هؤلاء ليسوا ملائكة وقد ظفروا بنصيبهم من ذبح البشر، لكن حضارة تعامل كلبًا أجرب قذراً بهذه الطريقة لهي حضارة تستحق أن تبلغ ما بلغته. أعرف أن في بلدي من هم أتعس حالاً من هذا الكلب، لكن هل هذا مبرر لقسوتنا الواضحة التي نورثها لأطفالنا؟. ثم من قال إننا نقسو على الحيوانات لأننا مشغولون بالرفق بالبشر؟.. لا وحياتك.. الواقع يقول إننا نقسو على الاثنين..

10- ظاهرة (لا للعمل الجماعي): لم تنجح أية محاولة للمقاطعة في أي اتجاه في مصر بالذات، لا في اتجاه الضغط على الجزارين أو شركات الاتصالات أو أي شيء. بالنسبة للشراء لم يحدث قط أن بارت سلعة ما بسبب ارتفاع سعرها، ولهذا لا تتحقق

أبدًا نظريات ماركس ولا يتشبع السوق إلى درجة انخفاض الأسعار. هناك دائمًا من يشتري بأغلى الأثمان.. ربما من منطلق التفاخر.. لهذا سيقول لك سائق التاكسي: "البلد مليانة فلوس". جميل جدًا.. لكن لماذا لا تصل هذه الفلوس للأسر التي تعيش على أقل من دولار في اليوم للفرد؟ يصل متر الأرض لعشرين ألفًا لكنه يجد من يشتري.. لو صار سعر كيلو اللحم سبعين جنيها فلن يتوقف الشراء. أية دعوة جماعية لأي شيء لا تنجح أبدًا.

11- ظاهرة (هؤلاء صراصير): هذا الاستهتار يبدو واضحًا عندما ترى أمًا ورضيعها يعبران الطريق فيندفع نحوهما سائق السيارة بسرعة أكبر.. يعطي سائق السيارة إشارة لليمين فتكون هذه علامة للسيارات كلها كي تمر على يمينه بسرعة البرق. وتنظر لراكب السيارة المندفعة فترى كائنًا ضيق الجبهة كإنسان نياندرثال، شرس الملامح ضيق الأفق فخورًا بنفسه.. هذا كائن غريب ظهر مؤخرًا. وماذا عن عصابات سرقة (عين القط) من الطرق السريعة بلا مبالاة بالسيارات التي ستخرج عن الطريق وتنقلب؟.. هناك مطب صناعي مهم اضطروا لإزالته لأنهم كانوا يضعون لافتات تنذر الناس

منه.. فكلما وضعوا اللافتة سرقها أحدهم ليلاً.. النتيجة أن السيارات تنقلب بلا توقف عندما تكتشف هذا المطب فجأة.. ما الذي يمكن عمله بلافتة كتب عليها (احترس.. أمامك مطب صناعي)؟.. المصريون يعرفون الإجابة!.

12- ظاهرة (التفرنج): في كل مكان تفسح اللغة العربية مكانها لمصطلحات غربية عرجاء مثل (ماسيدج) وهو النطق الأعرج لـ Message و (ترينك) للدلالة على الـ Training suit وذلك الأحمق الذي يسمي محله 666 ويعلق آيات قرآنية غير عالم أن هذا الرقم يرمز للشيطان!... هو فقط يستنسخ الثقافة الغربية كالببغاء.... يقولون مرض (زهايمر) باعتبار (ألزهايمر) اسم معرف بألف ولام!. يشربون (الكانز) ويصرون على عدم تسميتها (علبة) فإذا قلت إن هذا جمع وطلبت (كان) واحدًا لنفسك، نظروا لك مندهشين من جهلك. هل يعني هذا أنهم يحافظون على اللغة العربية ؟ لا وحياتك.. بلا توقف يدمرون اللغة العربية وقواعدها. والسؤال هنا هو: لماذا لا تستعمل عربية جيدة أو إنجليزية جيدة؟.. لماذا ترقص

بين اللغتين ؟

13- ظاهرة (الزلنطحية): قس كل شيء على سلوك سائق التاكسي الذي يعتبر أنك ذبحته لو طلبت منه أن يمشي مترًا واحدًا إضافيًا، بينما هو مستعد أن يدور حول القاهرة عشر مرات إذا ركبت جواره بنت حسناء من إياهم. وهو يعتبر أن الزبون المثالي المحترم (بتاع زمان) هو الذي يفتح باب التاكسي ثم يغلقه دون أن يركب ويدفع له عشرة جنيهات.

سوف أتوقف هنا لأنني من الممكن أن أستمر في العد حتى الرقم مئة!

البحث عن أم أنس

تصاعد الدم إلى رأسي غيظًا عندما طالعت عدد مجلة روز اليوسف الصادر يوم السبت 21 مارس 2007؛ فقد وجدت في ملزمة الوسط الملونة مقالاً للصحفية نهاد عزت عنوانه (آخر ما أنتجته ماكينة التخلف والتطرف: جلوس المرأة على الكرسي زنا لا شبهة فيه!).. إلى هذا الحد ؟

المقال يتكلم عن موقع إنترنت يدعى موقع (أم أنس)، التي تصف نفسها بأنها (علامة الدارين الدنيا والآخرة) وأنها (سيدة الزمانين ما مضى وما هو آت)، ثم تصدر فتوى تحرم الجلوس على الكرسي استنادًا إلى أربعة أسباب منها أن السلف الصالح لم يجلسوا على المقاعد ولا الأرائك.. إن في استخدام المقاعد ما يوحي بالإعجاب

بالغرب، وهذا يهدم ركنًا عزيزًا من الإسلام هو الولاء والبراء..

لم تقل أم انس هذا فحسب، بل اشترطت عدم تقديم الأزهار للمرضى لأن في هذا تقليدًا للغرب، وأباحت كذلك الكذب والتزوير لـ (نصرة أمة الإسلام ضد بني علمان)..

المقال طويل ومليء بأمثلة صادمة قاسية توحي بأننا نتكلم عن مستشفى مجانين كبير.. وعلى كل حال اعتاد المرء ألا يندهش لشيء.. لقد أمست الهواية المفضلة للعرب اليوم هي التحريم.. يجب ألا يمر يوم من دون تحريم شيء جديد، وقد حكى الشيخ الغزالي رحمه الله عن ذلك الشاب في دولة خليجية محافظة الذي سأله عن رأيه في الخل.. قال الشيخ في دهشة من غرابة السؤال: "هو حلال".. هنا نظر له الشاب في ألاطة وقال: "دليلك.. ؟".. استشاط الشيخ الغزالي غضبًا وقال للشاب المتحمس: "وما دليلك أنت على تحريمه؟.. الأصل في الأشياء الإباحة.. كل شيء مباح ما لم يكن هناك نص واضح في القرآن والسنة يحرمه.."

سمعت الكثير من تلك القصص، ولذا كنت على استعداد لتصديق ما هو أقل فداحة من هذا الخبر، لكن تحريم الجلوس على

مقعد بدا لي ضربًا مبالغًا فيه من الشطط.. ضربًا يفوق قدرتي على ابتلاعه أو تصديقه..

هكذا فتحت شبكة الإنترنت وبحثت عن الأخت (أم أنس) هذه حتى وجدت موقعها.. هنا أصابتني الدهشة.. يمكن لأي طفل أن يعرف بعد ثلاث دقائق أن الموقع ليس دعاية للسلفيين بل هو مخصص للسخرية منهم.. هناك من يقلد كلامهم مع كثير من المبالغة (الفارص) التي لا تخدع أحدًا، ولم يرد صاحبها أن يخدع أحدًا، إلا لو كان المنولوجيست يحاول انتحال شخصية عبد الحليم حافظ عندما يقلده..

مثلاً كيف يتحدث موقع سلفي عن المطوّع المريض نفسيًا الذي يتسلى بتحسس أجساد الفتية المُرد، بعد ما يلومهم على عدم صلاة العصر أو حلاقة اللحية؟.. كيف يذكر حيثيات الكذب فيقول : "وقد استفاد من فتوى جواز شهادة الزور الشيخ العلامة عامص أبو القرون بعد أن مارس اللواط مع أحد الغلمان"؟.. أو هذا الخبر عن الشيخ نفسه : " لقد عُرف عن العلامة النحرير والداعية النخرير، عامص أبو القرون، عليه الصلاة والسلام، أنه يهوى ويعشق ويشم وينشق وله في الغرام مواقف مثيرة، وقضايا يقال بأنها خطيرة".. هل الموقع

السلفي سيقول عن أحد الشيوخ: (صلى الله عليه وسلم)؟!... وهذا الكلام عن ذباب أفغانستان الذي يشارك المجاهدين في طرد الأمريكان: "الذباب! ! أعزه الله كما يقوله من ذهب هناك. هذا الذباب العظيم الذي ورد ذكره في السنة المطهرة، ياخوان، أمره عظيم، أي و الله، إنه ما إن يمس جسد الافغاني أو المسلم حتى يعطيه قوة تضاعف قوة أربعة عشر بعيرا، الله أكبر يا إخوان، و يا سبحان الله .انظروا، إذا لدغ جسد الكافر أماته في الحال وجلب له الأمراض التي تتفشى في بني جلدته. يا الله، انظروا يا إخوان: ذباب، ذباب، يرسله الله لنصرة المسلمين حينما ذل المسلمون!"

القصة واضحة إذن ولا تحتاج إلى أمثلة أخرى.. هذا الموقع أنشأه من يريد السخرية من السلفيين.. في موقع آخر سلفي (بجدّ) وجدت من يتهم موقع (أم أنس) بأنه مدسوس من الرافضة.. رأيي أنه موقع أنشأه ملحد يريد أن يتسلى قليلاً، لكنه شخص يعرف المجتمع السعودي جيدًا، ويجيد العامية السعودية.. أي إنه شخص (من الداخل)...

المشكلة هنا ليست في الحرب الأبدية بين الوهابيين

وخصومهم، فهذه ليست موضوعنا هنا، ولكنها في الأخت العزيزة محررة (روز اليوسف).. هناك احتمالان لا ثالث لهما: إما أنها لم تتفحص الموقع بدقة وإنما أخذت منه بالضبط ما يناسب وجهة نظرها، وهذا يضعها في قائمة الاستسهال و(الكروتة)، على طريقة المخبر الذي ينتقي كتاب (التنظيم والإدارة) من بين كتب الطالب المعتقل ليثبت أنه ينتمي لتنظيم سري؛ وإما أنها أذكى من ذلك وقد تعمدت تزييف الحقيقة، على طريقة ضابط أمن الدولة الذي يرغب في تلفيق قضية لنفس الطالب البائس..

لا أعرف هل لعبت صحفيتنا العزيزة دور المخبر أم الضابط، لكن القارئ في الحالتين مخدوع، وقد تم تجنيده معنويًا لقضية لا وجود لها أو لم تبلغ هذا الحجم..

لست أدافع عن السلفيين هنا، لكني أدافع عن مبدأ الدقة والأمانة فيما يُنقل إلى القارئ سواء كانت الحقيقة في صفك أم ضدك.. إن الإنترنت أداة مذهلة لنقل المعلومة، لكنها – للأسف – أداة مذهلة لنقل الخرافات والأكاذيب كذلك. تغريك بالخفة وباستعمال معلومات غير موثقة أو تمت مطالعتها على عجل، ولا يقتضي الأمر

إلا الضغط على زر Forward لتسري هذه المعلومة المغلوطة كالنار في الهشيم.. كل خطاب يصلك ترسله إلى ألف عنوان في ربع دقيقة حتى قبل أن تقرأ محتواه.. شركة هوتميل سوف تلغي خدماتها المجانية قريبًا وعليك إرسال هذه الرسالة لألف شخص.. هذه صورة الفتى الذي تعفن بعد ربع ساعة من دفنه لأنه كان يستمع للأغاني.. أيقونة الدبدوب التي ستجدها ضمن ملفات النظام هي فيروس يهودي خطير تم دسه على ملفات المسلمين.. هذه هي الفتاة التي تحولت إلى سلحفاة لأنها أهانت المصحف.. تم تحليل عينة من مشروب البيبسي الذي سقط على ملاءة الفراش فاتضح أنها مليئة بفيروس سي.. وهكذا.. حتى تشعر بأننا أمة مترهلة لا تفعل أي شيء سوى الجلوس أمام الكمبيوتر وتبادل الأكاذيب والهراء..

النقطة الثانية هي ولعنا بعدم استكمال قراءة أي شيء.. تجد في الصحيفة خبرًا يقول: القبض على الممثلة الفلانية وفي حوزتها مخدرات.. تقرأ الخبر بعناية فتجد أن هذا سيكون دورها في فيلمها القادم.. مجرد لعبة صحفية قديمة قدم الطباعة ذاتها.. لكن الموظفين الملتفين حول طبق الفول الصباحي في المصلحة يتناقلون العنوان

باعتباره حقيقة لأنه لا أحد يحاول التدقيق..

هذا هو ما فعلته المحررة سواء بقصد أو دون قصد، وهذا الاستعمال أضعف قضيتها ولم يقوها.. نعم هناك الكثير من التطرف والشطط، لكن هذا التلاعب في الحقائق يجعلك تلقائيًا تقف في صف الجلاد لا الضحية (أو ربما هو العكس.. لست متأكدًا)..

غنوة وحدوتة

سأحكي لك يا مريم قصة كالتي حكيتها أمس.. في سنك تحلو القصص والتحليق بجناحين شفافين في أنسام الخيال، ولست أنسى لمعة عينيك السوداوين الجميلتين وأنفاسك المتلاحقة وأنا أحكي لك عن سندريلا عندما اقتربت عقارب الساعة من الثانية عشرة فراحت تركض كالملسوعة هاربة من الحفل. كنت خائفة مذعورة، وبرغم أنني أكدت لك أن نهاية القصة سعيدة؛ فإن النهايات المقلقة أمر غير وارد في مفردات عالمك.

قصة اليوم جميلة ولسوف تروق لك، ما عدا نهايتها. هناك غنوة كذلك على طريقة أبله فضيلة التي لم يسعدك الحظ بسماعها.

أنت تحبين الريف.. أليس كذلك؟.. قصتنا هناك. قصتنا في قرية صغيرة ناعمة باسمة حيث يبدو كل شيء كأنما خلق لتوه. الربيع على الأبواب.. أنت تحبين الربيع.. أليس كذلك؟.. الأزهار ورائحة الحقول المحروثة والملانة ودود القز.. أليس كذلك؟.. تلك مفردات عالمك في المدينة، لكن لك أن تتخيلي كيف تبدو الأمور في القرية الناعسة.. الأجمل هو أن اليوم هو الأربعاء، وكل الأطفال يحبون الأربعاء لأنه يسبق أجمل أيام الأسبوع: الخميس..

(زينب السيد إبراهيم) طفلة في سنك تقريبًا.. زينب تحب اللعب في الحقل وتحب الماعز الصغيرة وتحب الأطفال الآخرين، ولابد أنها فتحت عينها في ذلك الصباح شاعرة بانتعاش.. سيكون اليوم جميلاً. ترتدي المريولة الصفراء من ذلك القماش الذي كنا نطلق عليه (تيل نادية)، وبما أننا في قرية فهي تضع المريولة مباشرة فوق ثياب النوم، ثم تحمل الكيس القماشي الذي تضع فيه كتبها. معها أخوها (محمد) الذي يدرس في ذات المدرسة معها. إنهما يغادران الدار معًا.. الأب ذهب للحقل بعد صلاة الفجر كعادته والأم أمام الفرن.. يوم معتاد.. .

أنت تتابعين باهتمام يا مريم.. يبدو أننا نحب القصص التي تتحدث عن عوالم خيالية، لكننا كذلك نحب أن نرى أنفسنا في القصص من حين لآخر..

في المدرسة بانتظار انتهاء طابور الصباح.. لا يستطيع هؤلاء الأطفال أن يظلوا وقورين محترمين لحظة واحدة. لقد خطف (محمد) كيس (فاروق الدسوقي).. توعده الأخير بالضرب، بينما كان (عوض الجوهري) يحمل كنزًا حقيقيًا.. لقد اصطاد ضفدعًا ذكرًا يصدر نقيقًا عاليًا، لكنه لم يعرف أين يضعه فأخفاه في جيب المريولة.. حاولت (نجاة) أن ترى الضفدع فلم يسمح لها، من ثم توعدته بأن تشكو للأستاذ في أول حصة..

هكذا انتهى الطابور، وجلس الأطفال في الفصول الثلاثة الصغيرة التي تتكون منها هذه المدرسة.. فصول صغيرة اكتست جدرانها بالرطوبة والطحالب، لكنهم كانوا يشعرون بأنها واسعة جدًا. أمامهم يوم ممل قصير ثم يعودون لبيوتهم، وبعدها يبدأ اللهو.. لهو حتى مساء الجمعة عندما يتذكر كل منهم أنه لم يخط حرفًا في كراس الواجب.. (عوض) قلق لأن (نجاة) سوف تشي به..

بعد المدرسة سوف تمر زينب ومحمد على الحقل حيث يستريح أبوهما تحت (السجرة). سوف يهرع محمد للبيت ليجلب الطعام الذي أعدته الأم، ملفوفًا في منديل كبير.. لا لحم اليوم فاللحم ليوم الخميس فقط.. .

هنا سمعوا صوت طائرات..

ارتفعت الرءوس الصغيرة لأعلى في شغف وكلهم يتمنى لو استطاع أن يركض للفناء لرؤية الطائرات الجميلة وهي تعبر السماء.. فووووووم!

وهنا اهتزت الأرض ودوى الانفجار الأول. زينب احتاجت إلى بعض الوقت لتفهم أن شيئًا غريبًا يحدث.. المدرسة ترتج بطريقة غير مسبوقة. لكنها لحسن الحظ لم تجد الوقت الكافي لتدرك أن الطائرات تقصف مدرستها بالذات.. تقصف فصلها بالذات.. ...

لن أحكي ما بعد هذا، فقد تم كل شيء بسرعة.. فقط انتهت القصة تمامًا بالنسبة لزينب السيد إبراهيم عوض وأخيها محمد.. لن تكبر أبدًا.. لن تحكي لأمها في خفر عن زلزال الأنوثة الأول، ولن ترقص النساء لها في ليلة الحنة، وبالتأكيد لن يلوح زوجها بالمنديل

إياه، ومحمد لن يكبر ويسافر للعراق بحثًا عن الرزق.. آخرون كـذلك منهم نجاة الـتي لـن تـشكو للمـدرس بالتأكيـد، وإيمـان الـشبراوي، وجبر عبـد المجيـد، وعـادل جـودة.. .و.. و.. ثلاثـون طفـلاً سـوف يظلون أطفالاً للأبد.. والمدرسة لم يعـد لهـا وجـود.. . فقـط بركـة دم وكراسات ملوثة ومحترقة.. ...

أنت مندهشة لماذا حدث ذلك يا مريم؟.. إنها التاسعة والثلث صباح الثامن من إبريل عام 1970 وهذه مدرسة بحر البقر الابتدائية بمحافظة الشرقية.. يوم الخميس القادم يكون قد مر على هذا المشهد أربعون عامًا.. منـذ أربعـين عامًـا أذاعـت الإذاعـة المـصرية الخـبر، فرأيت أمي ترتجف بلا توقف كمن تـسري الكهربـاء في جـسده، ثـم دخلت الفراش وأسنانها تصطك وظلت تبكي لـساعات كـأنني أنـا مـن مات.. منذ أربعين عامًا كان هناك مأتم حقيقي في كل بيـت مـصري.. وكتب الرائع صلاح جاهين قائلاً:

-"الدرس انتهى لموا الكراريس.. ايه رايك في البقع الحمرا يا ضمير العالم يا عزيزى ؟ دى لطفلة مصرية سمرا..كانـت مـن أشـطر تلاميـــذى.. دمهـــا راســـم زهـــرة..راســـم رايـــة ثـــورة..

دم الطفل الفلاح راسم شمس الصباح.. "

هذه هي الغنوة.. أنا آسف إن كانت القصة لم ترق لك يا مريم.. لم أستطع أن أجعلها مبهجة أكثر. كيف أفعل ومدرسة الأطفال الصغيرة الفقيرة تلقت صاروخين وخمس قنابل كأنها لواء مدرع كامل ؟، والسبب أن إسرائيل كانت بحاجة إلى أن تلقن عبد الناصر درسًا بعد تزايد نشاط حرب الاستنزاف.

تسألين إن كان العالم اهتز لهذه الجريمة؟.. بالطبع تضايق جدًا.. والله العظيم تضايق، وأعرب الجميع عن التأثر، لكن ليس لدرجة استصدار قرار إدانة من مجلس الأمن.. إسرائيل اعتذرت وأعطت العالم سيجارة فوضعها خلف أذنه وانصرف شاكرًا..

نعم يا مريم.. حتى في مصر نسينا كل شيء عن هؤلاء الأطفال الثلاثين، وفيما عدا بعض الجهود الفردية مثل جهد الأستاذ (عصام الاسلامبولي) لمقاضاة الجناة، فإننا لا نثير هذه القضية حتى لا نخدش سلام إسرائيل النفسي. لقد ولى عهد الحقد، وليه يكونوا ناس في ناحية وناس في ناحية؟.. هناك من يصدّر الغاز لإسرائيل لأنها دولة صديقة، وهناك من يؤمّن حدودها، وهناك من يصدّر لها

الأسمنت، وهناك من يعانق قادتها ، وهناك من يلوم سكان غزة لأنهم يحدثون صخبًا عاليًا وهم يُذبحون..

نعم يا مريم.. أنا من جيل تعلم أن يكره كل ما هو إسرائيلي.. أكره علمهم وأتشاءم من منظره.. وما زال منظر حروفهم العبرية يجعل الشعر ينتصب اشمئزازًا على ساعدي لأنه يذكرني بمنظر أقدام العنكبوت.

إن النعاس يداعب جفنيك، ولو كان حظي حسنًا فأنت لم تكوني واعية عندما سمعت قصة موت الأطفال، لكني كلما رأيت أطفالي وأطفال الآخرين تذكرت إسرائيل القادرة الراغبة في كل لحظة أن تكرر ما حدث يوم الأربعاء الحزين.. أربعاء الرماد على رأي الخواجة إليوت. لا أطلب منك شيئًا وإلا لفعلته أنا، لكني أريدك ألا تنسي، وألا تخبو جذوة الحقد المقدسة أبدًا مهما قالوا ومهما زعموا ومهما غيروا الحقائق.. لا تتحدثي عن العالم الجديد ونسيان خلافات الماضي، فالإسرائيليون لم ينسوا النازيين يومًا واحدًا ويلاحقونهم في كل مكان ويخطفونهم ويعدمونهم، فلماذا ننسى نحن؟

الدرس انتهى.. لموا الكراريس.. ......

خالدنا وخالدهم

كلما قرأت تفاصيل هذا الذي وقع في سيدي جابر، شعرت بأن هناك شابين يحمل كلاهما اسم خالد محمد سعيد، تواجدا في الاسكندرية في تلك الساعة من يوم 8 يونيو عام 2010 وتوفيا إلى رحمة الله في نفس اللحظة. هناك خالدهم.. خالد تقارير الحكومة وكتاب الصحف القومية، وخالدنا نحن المصريين الذين يملئون الشوارع ويتمنون أن يبتعدوا عن الحكومة وتبتعد الحكومة عنهم..

الحقيقة تضيع بسهولة ومن السهل على أي ضوضاء أن تخفي حقيقة ما يحدث.. جربنا هذا من قبل في مواقف عديدة، لكننا تعودنا كذلك على أن الحكومة تكذب كثيرًا جدًا.. المفكر العالمي الوحيد الذي تؤمن بأفكاره هو (جوبلز). ولقد تعلم المواطن المصري

منذ زمن أن يقرأ الصحف القومية مع بعض التغييرات: (لا صحة لما نشر عن زيادة في الضرائب).. معناها (ما نشر عن زيادة الضرائب صحيح تمامًا). أو (جميع المصريين في سييراليون بخير) معناها (المصريون في سييراليون حالهم زي الطين). هكذا تصير الصحف القومية مفيدة جدًا وبالغة الصدق. هكذا يمكننا أن نعرف رواية من الأصدق بصدد خالد، دعك من أن الفتى (خالد) كان له أصدقاء يعرفونه جيدًا وهم شهود مهمون..

ما هو الفارق بين خالدنا وخالدهم ؟...

خالدنا شاب في الثامنة والعشرين من العمر، له وجه وسيم وابتسامة هادئة مهذبة توحي بالثقة وعينان مليئتان بالأحلام. هل كان يحب فتاة رقيقة مثله؟.. هل كانت هي تحبه؟.. هل كان يتهيأ لطلب يدها؟.. شاب سكندري ملأته المدينة الساحرة بحب الجمال، يهوى تربية القطط ولديه صورة وهو يحمل قطة تحت إبطه.. اعتدت أن أثق بمن يحب القطط وأصدقه، لكن هذا موضوع آخر.. شاب يعزف الموسيقا على جهاز الكمبيوتر الخاص به، ويصطاد السمك ولديه شركة استيراد وتصدير صغيرة (على قده).. يمكن أن يكون

ابن أو أخا أي واحد منا. عرفت كذلك أنه عاش لفترة في أمريكا وله أخ يحمل الجنسية الأمريكية، وهو يهوى الإنترنت.. لا يعرف أن الإنترنت هوية قاتلة بالمعنى الحرفي للكلمة.. لكنه سيعرف هذا حالاً....

خالدهم – بالصدفة – في نفس السن. هو شاب عاطل وصايع فعلاً. إنه الرجل الذي لا تتمنى أبدًا أن تقابله في زقاق مظلم. يتاجر في المخدرات وفار من الخدمة العسكرية، ويحمل مطواة قرن غزال.. سبق له التحرش بفتيات ومطلوب في قضايا سطو مسلح.

هل يمكن خلط الحقائق لهذا الحد؟.. لماذا لم نسمع هذا الكلام إلا من الداخلية، بينما يصر الجيران والأصدقاء على أنه مجرد شاب مهذب لطيف؟.. يبدو أن قدرته على الخداع كانت فائقة إذن..

خالدنا كان جالسًا في مقهى الإنترنت في كليوباترا، عندما اقتحم المكان بسطويسي.. آسف.. اقتحمه المخبران محمود الفلاح وعوض وراحا يفتشان الموجودين في وقاحة. ما فعله خالد هو أن أبدى امتعاضه وتساءل عما فعله.. كان هذا إعلانًا بالكفر بالنسبة للمخبرين اللذين قررا أن الوقت قد حان للتسلية وإخراج طاقة

السادية لديهما.. طوارئ يا عسل كل سنة وانت طيب.. هكذا انهالا ضربًا ولكمًا على الفتى، حتى سقط على الأرض.. . لكن أحدهما أنهضه وأمسك برأسه وراح يضربه على الكاونتر مرارًا..

ثم أن المخبرين حاميي القانون اقتادا خالدنا إلى عقار جوار المقهى وتوليا ضربه بالركلات في البطن والصدر حتي فقد وعيه، فحاول أحدهما إفاقته بطريقة علمية هي ضرب رأسه في جدران العقار والسلالم الرخامية. ثم حملاه داخل سيارة الشرطة إلي قسم سيدي جابر وسط ذهول الحاضرين، وبعد عشر دقائق عادا به بدعوي طلب سيارة إسعاف لنقله إلي المستشفي، لكنه كان قد فارق الحياة..

يقول الشهود إن مباحث سيدى جابر انتشرت بالمنطقة ليس بحثًا عن الجناة، بل بحثًا عن محمول مزود بكاميرا قيل إنه التقط صورًا للجريمة. يقولون كذلك إن مباحث سيدى جابر مارست كل أنواع الضغط لإثناء شهود الواقعة عن الإدلاء بشهادتهم على تفاصيل ما حدث.

خالدهم تصرف بطريقة مختلفة تمامًا.. شخص بهذه المواصفات لابد أنه كان يحمل بانجو، وعندما رأى دورية يقودها

ضابط مباحث سيدي جابر ورجلا شرطة أصابه الهلع فابتلع ما معه من بانجو. أصيب بحالة من الإعياء وتوفي قبل بلوغ المستشفى. وقال المسعف في أقواله أمام النيابة إنه استخرج لفافة من القصبة الهوائية للمتوفي والتي أصابته بالاختناق، واستبعدت التحقيقات وجود شبهه تعذيب بعد مناظرة الجثة .

كلنا نعرف كيف يستخدم البانجو لتلفيق القضايا، وقديمًا قال ضابط شرطة بعيدًا عن النشر: أي رئيس مباحث لا يحتفظ في درج مكتبه بقطعة حشيش ومطواة قرن غزال وطبنجة لزوم تلفيق القضايا، هو رجل لا يعرف شغله!

لكن لندع الصور تتكلم.. الصورة التي نشرت لجثة خالد الرقيق عاشق القطط تجعلك تتساءل: هل قبضوا على سائق القطار الذي داس عليه؟.. لقد تحطمت الأسنان والفك وتشوه الوجه تمامًا..

خالدنا صار هكذا بعد تعامل بسيط مع الداخلية التي توحشت وصار من المستحيل إعادتها للقمقم.

خالدهم صار هكذا لعدة تفسيرات قدمتها الداخلية.. التفسير الأول هو ابتلاع كيس البانجو.. حتى لو كان البانجو مغشوشًا فليس

مـن آثـاره الجانبيـة تحطـيم عظـام الوجـه.. التفـسير الثـاني هـو التشريح.. لكننا كنا طلاب طب ورأينا الجثث وكيف يصير حالهـا في نهاية العام الدراسي بعد ما يمزقها مئـات الطـلاب شـديدو الخـرق، لكننا لم نر هذا المشهد.. التفسير الثالـث هـو ارتطامـه ببـاب عربـة الإسعاف.. كثرة التفسيرات تدل على أنه لا تفسير لديهم..

خالدنا كما قال صديقه الصحفي بهـاء الطويـل في مقـال لـه لم يتعاط المخدرات لأنه فى الأصل غير مدخن، وأدى الخدمة العـسكرية مثل أى شاب مصرى.

خالدهم مجـرد مجـرم تلقـى عقابـه.. وكمـا وصـفته الـصحف القوميـة بلطـف: (شـهيد البـانجو).. ظريـف جـدًا.. هـؤلاء القـوم مجموعة من الحمقى ويجب أن يعاقبهم النظام بقسوة لأنهـم يؤذونـه بلا توقف. المشاعر ملتهبـة ولـو لمستها نـسمة لالتهبـت، لكـن الأخ كاتب المقال يسخر من المتوفى ويهـين أسـرته وأصدقاءه.. بـل يهـين مفهوم الشهادة الديني أصلاً..

خالدنا غيّر الكثير فعلاً... لم تذهب قطرة من دمه هدرًا وصار رمزًا.. فوجئت أنه صارت له صفحة علـى الويكيبـديا العربيـة؛ أي

أنه صار من المعلومات العامة التي يجب أن يعرفها المواطن المثقف. عقب أداء صلاة الغائب عليه بميدان كيلوباترا، تظاهر مايقرب من 3 آلاف شخص من أبناء الإسكندرية والقوى السياسية المختلفة من أعضاء حركة الجمعية الوطنية للتغيير وحركة الاشتراكيين الثوريين و6 أبريل وحركة كفاية. خالدنا قد أظهر كم أن الأمور بلغت حافة الهاوية ولم يعد أحد يتحمل أكثر.

خالدنا كان يعرف الكثير لو أخذنا بما قالته السيدة ليلى مرزوق أمه.. قالت إن ابنها حصل على فيديو يتضمن لقطات بالصوت والصورة لأحد ضباط قسم سيدي جابر والمخبرين وهم يقومون بالاتجار في الحشيش، مشيرة إلى أن المجني عليه قام بنشر الفيديو بين أصدقائه وذلك منذ حوالي شهر. خالد قال إنه سوف ينشر هذا الفيديو في مدونة..

حتى لو كان خالدهم له وجود وكان يتاجر بالبانجو في اللحظات التي لا يغتصب فيها البنات، فبأي حق يتم إعدامه في قلب الإسكندرية من دون محاكمة ؟ وبأي حق يخرج بلطجيان ساديتهما عليه لمجرد أنه لا يستطيع الرد؟.. يبدو أن أهل (كترمايا) اللبنانية

كانوا شديدي الرقة إذن.. .

خالدنا هو شهيد الطوارئ.

خالدهم هو شهيد البانجو.. لكن العبقري الذي اصطك هذه العبارة سوف يدفع ثمنها يومًا ما، ولسوف يتمنى لو قطعت يده قبل أن يكتبها إرضاء لفلان باشا. هل أنت متأكد يا سيدي من أن طائرة الفرار المتجهة إلى سويسرا سوف تقلع في وقتها حقًا ؟

مزاج عال جدًا

كانت السينما المصرية دائمًا مواكبة لذوق الجماهير لكنها تصنعه كذلك. إنها تتبع المجتمع لكنها تقوده في الوقت ذاته، وهي علاقة غريبة فعلاً. في الستينات عندما كان الموظف قمة السلم الاجتماعي كان هو بطل وزبون الأفلام العربية، ويجب أن نذكر كذلك أن كل بيت سينمائي كان فيه بار. يعود الرجل مرهقًا من الخارج فتسأله زوجته (تاخد كاس ؟)، ويبدو أنهم كانوا يتعاملون مع الخمر تعاملنا مع السجائر: (ماحبش الراجل اللي بيشرب). تقولها شادية لرشدي أباظة الذي سقطت خصلة من الشعر المعجون بالعرق على جبهته.

بدأ السلم الاجتماعي يتغير، وصار زبون السينما هو الحرفي

والسباك. هنا ظهر الحشيش في الأفلام بكثافة وصارت الجوزة من لوازم كل فيلم. كل أفلام هذه الفترة لا تكاد ترى شيئًا في كادراتها من الدخان الأزرق، لدرجة أن إكسسوارات فيلم (بنت تحية عزوز) شكلت أحرازًا لقضية مخدرات كاملة عندما ضبطتها الشرطة. ونادية الجندي المعلمة بالجلباب اللامع تتغزل في الجوزة : "جوزة من الهند ومركب عليها غاب". فيرد الحشاشون: "حصل لنا التلبس.. هع هع هع". أضف لهذا نكتة أو نكتتين عن ليلة الخميس والكوارع والركب ليكتمل جو الثمانينات. وأضف كذلك محمود عبد العزيز بطل الفيلم الظريف، وهو يضحك ضحكته الشهيرة وعيناه شبه مغمضتين، والدخان يتصاعد من فمه المفتوح. لا ننكر هنا كذلك أن المد الديني في السبعينات جعل الناس تبحث عن مخدر لم يحرم صراحة دينيًا، وهكذا ظهر مبدأ أن الحشيش لم يُحرم في القرآن بينما الخمر حُرمت، وهو منطق ناقشه فيلم العار ببراعة وأمانة.

مع الوقت بدأت السينما تتملق الشاب (الروش) الطالب زبون المول.. هنا تكرس سينما الشباب مفهومين مهمين هما البانجو والبيرة. أي شاب طبيعي لابد أن يدخن البانجو ويشرب البيرة مع

ظهور البرشام في أفلام عديدة. لا يوجد فرح شعبي في أي فيلم جديد من دون بانجو وبيرة، ولا أفشي سرًا إذا قلت إن معظم القرى حول مدينتي تعلمت هذا المفهوم الجديد، وصار البانجو من أساليب نقوط العريسين المحترمة. لو لاحظت لوجدت معظم هذه الأفلام تظهر مدمن البانجو كشخص ظريف حبوب لا يمكن الاستغناء عنه. قد تكون هذه الأفلام مرآة المجتمع لكنها كذلك تصنعه، وهي علاقة معقدة فعلاً كما قلت.

الحشيش.. البانجو.. الماريجوانا.. القنب الهندي.. المخدرات. لا أبالغ لو اعتقدت أن كل جريمة في مصر تتم اليوم تحت تأثير المخدرات أو طلبًا لثمنها.. كل حادث.. كل إهمال.. كل اغتصاب.. كل سرقة.. كل مشاجرة..

لماذا تذكرت هذا الموضوع الآن ؟

إنه ذلك الخبر في الصحف عن نتائج تحليل دم سائق القطار 152 الذى كان متوقفًا بين محطتى الرقة وكفر عمار في حادث العياط الشهير. الرجل تعاطى الحشيش قبل وأثناء قيادته القطار، أما سائق القطار 188 فقد عطل الجزرة المسئولة عن توقيف القطار. هناك جهاز

أوتوماتيكي في القطار استشعر وجود العطل وخفض سرعة القطار من 129 كيلومترًا إلى 67 كيلومترًا، وهو ما منع كارثة ذات أبعاد كونية، لكنه لم يستطع التوقف بالكامل. من جديد الجزرة التي تسبب كل حوادث القطارات في مصر، والتي يبدو أنها مصرة على القضاء علينا.

طبعًا موضوع التغيرات العديدة في الشخصية المصرية قُتل بحثًا، لكننا هنا نتكلم عن الحشيش بالذات.. اللجنة المشكلة من أساتذة الهندسة ونائب رئيس هيئة السكة الحديد وخبير من وزارة النقل اكتشفت أن جهاز اللاسلكي الخاص بالسائق سليم، لكنه لم يستعمله قط في النداء على عاملي الأبراج القريبين منه أو القيادة المركزية.

فتش عن المخدرات.. فتش عن المزاج.. فتش عن الدماغ التي ينفق عليها المصريون كل هذه المبالغ كأنها دماغ (إنريكو فيرمي) ذاتها. الناس تشتري الحشيش والبرشام وتزرع البانجو.. بينما بعض الصيادلة المنحرفين يفتشون بنهم في مجلدات الفارماكوبيا عن عقاقير جديدة تصلح. متى اكتشف المدمنون أن أدوية السعال تحوي

جرعة ممتازة من الكوداييين؟.. بالطبع أخبرهم صيدلي بذلك، ومن اكتشف أن الترامادول يصلح لعمل (دماغ)؟.. أنا أتهم بعض الصيادلة المنحرفين، وأتهم كذلك بعض المحامين معدومي الضمير الذين تخصصوا في إخراج كل تاجر مخدرات من السجن (كالشعرة من العجين) بسبب أخطاء الإجراءات. لهذا السبب لم تجلب عقوبة إعدام تجار المخدرات مردودًا واضحًا. أتهم كذلك المعتقد الشائع أن المخدرات مقوية جنسيًا وهذا سبب قوي جدًا للتعاطي لدى شريحة كبيرة من الطبقات الفقيرة.. يجب أن نزيل هذا الوهم عن الأذهان.

لقد غيرت المخدرات وجه مصر وسوف تغير مستقبلها بلا شك.

الأرقام متضاربة جدًا لكنها مرعبة دائمًا.. في مصر يمكنك التعامل مع الأمور بطريقة (قليل – متوسط – زائد)، كأنك طبيب يصر على قياس حرارة المريض بظهر يده. يقولون إن حجم تجارة المواد المخدرة بلغ نحو 18.2 مليار جنيه في عام واحد. ما يتم إنفاقه على المواد المخدرة تصل نسبته إلى 2.5 في المائة من عوائد الدخل القومي، أو هو نحو 79.5 في المائة من دخل قناة السويس، و32.8 في

المائة من عائدات الصادرات المصرية و41.3 في المائة من عائد السياحة و46.9 في المائة من تحويلات المصريين بالخارج. معنى هذا أننا ننفق على المزاج العالي كل دخل قناة السويس تقريبًا ونصف ما يأتي من السياحة. الحكومة المصرية تقدر نسبة ما يباد أو يصادر من المخدرات بـ 30٪ من الكمية الإجمالية وهي نسبة معروفة عالميًا على كل حال لا يمكن تجاوزها. الخبر الجميل هو أن الكميات التي تُضبط تزداد لكن سعر البانجو لم يتأثر مما يعني زيادة حقيقية في الإنتاج.

من الأشياء التي لم أكن أعرفها أن عقار (الاكستازي) يتزايد في مصر، وأن عقار الروهيبنول موجود عندنا. الروهيبنول مشهور جدًا في الخارج لأنهم يسمونه بعقار الاغتصاب.. حيث يدسه الشاب للفتاة في الشراب فلا تعرف أي شيء عما يجري لها. تخيل ما قد يسببه هذا العقار في مجتمعنا.

بين كل مائة شاب هناك 16 يجربون المخدرات، وهناك 4 من هؤلاء يدمنون. عدد مدمني الهيروويين في مصر يتراوح من 20 ألفًا إلى 30 ألفًا.

المخدرات تتزايد بلا شك.. تعرف هذه الحقيقة وأنت ترى هذه العيون المحمرة المنتفخة والنظرة الرخوة الثقيلة في كل مكان. ولسوف تتزايد مع الضغوط الاجتماعية والبطالة والآباء المقيمين بالخارج مكتفين بمنح أولادهم المال، وتتزايد معدلات الطلاق والتفسخ الأسري، ولسوف نقابل أكثر من سائق قطار لم يضع الجزرة في السنين القادمة. ما أعرفه أنا هو أنني سأكتب عن هذا الموضوع مرارًا، وسأراقب أولادي جيدًا جدًا داعيًا الله أن يحفظهم من تجربة سيجارة البانجو الأولى أو قرص الإكستازي الأول، إلى أن تقضي الحكومة — بعون الله – على البطالة والفقر والمرض والجهل وتجارة المخدرات.

الوحش داخل الإنسان

صبيحة عيد الأضحى بعد الصلاة. يدوي في الجو خوار العجول والأبقار التي تقف عند الجزار على ناصية الطريق تنتظر الذبح. كنت أنا مشاركًا في أضحية لذا كان علي أن أنتظر. تحول الشارع إلى بحيرة من الدم ترتفع إلى منتصف إطارات أية سيارة مارة، وقد جلبوا مجموعة من فتية السلخانة المحترفين المدججين بالخناجر والمدي ليباشروا الذبح، والواحد منهم صار نجم الساعة.. مفعمًا بالغرور والاستعراض يفرغ كوب الشاي في جوفه في دقيقة، ثم يشهر السكين ويثب فوق هذه البقرة أو هذا العجل ليجثم فوقه، ويقيد أقدامه بالحبال ثم يذبحه في ربع ثانية، وبعدها تبدأ الطقوس المعهودة من الحيوان الذي يتشحط في دمه عاجزًا عن فهم ما حدث

له، ثم السلخ ثم التقطيع والتعليق.. بالطبع أتابع هذه الطقوس كضرورة ولا أحاول أن أركز معها أكثر من اللازم.

في الأعوام القليلة السابقة لاحظت أن الأمر يوشك على أن يصير كرنفالاً.. أسر كثيرة تجئ بسياراتها وأطفالها وثياب العيد الأنيقة، لتقف وسط الدم وتراقب المشهد ولا تفوت منه ثانية واحدة، والكل يرفع الهاتف المحمول ليصور كل لحظة من لحظات الذبح. لا بأس.. لنقل إنها فرحة العيد وفرحة الطاعة، وهي فرحة مشروعة.

لكن شيئًا من الشك بدأ يتسرب إلى نفسي، وأنا ألاحظ أن هناك نوعًا واضحًا من التلذذ.. خذ مثلاً هؤلاء الأطفال الذين اتجهوا نحو عجل مربوط إلى عمود نور ينتظر دوره، وراحوا يرجمونه بالحجارة ويسبونه، بينما الكبار مستمتعون، حتى نهرت أنا هؤلاء الصبية: "حرام عليكم.. مش كفايه حيتدبح حالاً ؟". السيارة التي تتوقف أمامي لتخرج منها فتاة تضع مساحيق وعطورًا ثقيلة جدًا وتلبس الإسدال وتحمل كاميرا فيديو، وتتسع عيناها في نهم وحشي ثم تصيح : "شوفي يا هبة!... البقرة خايفة تندبح! "

وتقهقه بينما تطل هبه – ذات ثمانية الأعوام – من السيارة

وهي تضحك في فرح..

من رحمة الله أن هذه الحيوانات العجماء لا تفهم ما يدور حقًا، لهذا تحمس أحد الذكور جنسيًا نحو أنثى مربوطة جواره واتخذ وضع الجماع.. هذا الحيوان سيُذبح هو وأنثاه بعد دقائق لكنه يحاول تكوين أسرة. كانت هذه دعابة أقوى مما يتحمله الناس فانفجروا يضحكون ويسبونه بأقذع السباب، ثم ضربوه بالحجارة ليتخلى عنها.

بدأت أشعر بالرعب.. الأمر يتجاوز فرحة العيد إلى مهرجان من مهرجانات المسرح الروماني، حيث يلقون بالعبيد للأسود وهم يسخرون منهم.. الدم والخوف والألم.. لا تقل لي إن هذا الحماس سببه التدين، فكل نص ديني أعرفه يدعو لأن تحسن القتلة ولا تعذب الحيوان. والأدهى أنني لم أكن أرى هذه القسوة فيما سبق..

ماذا حدث للمصريين؟.. السؤال الملتاع الذي أطلقه د. جلال أمين منذ أعوام ما زال يتردد..

في الفترة الأخيرة صار السؤال هو: ماذا حدث للعرب ؟... لقد استعدت ذات المشهد وأنا أرى الصور الشنيعة لذلك الشاب

المصري الذي مزقته قرية لبنانية كاملة، وعلقته كالذبيحة.. وكالعادة يحمل الجميع أجهزة المحمول ليصوروا كل تفاصيل هذا المشهد.. الفرحة في العيون مع قدر لا بأس به من الانتشاء.. مشهد تعليق جثة موسوليني وكلارا بيتاتشي يتكرر بعد خمسة وستين عامًا، مع كل مشاهد الإعدام دون محاكمة Lynching في الغرب الأمريكي..

ماذا فعل ؟... لا تقل لي إنه قتل أسرة من فضلك، فالمتهم بريء حتى تثبت إدانته وما دام لم يُحاكَم فأبسط القوانين يقول إنه ليس من حق أحد أن يعدمه سوى قاضيه الطبيعي. حتى لو أظهر تحليل الحمض النووي أن دماء الجدة والطفلة عليه، فلا أرجح أن أحد من فتكوا به أجرى اختبار PCR قبل أن يمزقه. بل سأزعم كذلك أن بعض من ضربوه لم يكونوا يعرفون تهمته أصلاً، هم وجدوا أناسًا يضربون رجلاً فاشتركوا معهم.

أذكر عندما كنت طبيب امتياز أن جاءني في الاستقبال فتى متهم بتعاطي المخدرات، فطلبت من رجل الشرطة الذي يربطه بالأصفاد أن يصطحبه إلى العنبر.. على الباب حاول الفتى أن

يتملص، فانهال عليه الشرطي ضربًا.. سقط على الأرض.. هنا فوجئت بأن كل رجال أمن المستشفى ورفيقي الشرطي ينهالون عليه ركلاً في بطنه وضلوعه وخصيتيه بأحذيتهم الميري الثقيلة، وهو يعوي ككلب جريح.. لم يعرف رجال الأمن من هو الفتى ولا ماذا اقترف، ولا يعرفون أي شيء سوى أن هذا جسد بشري يجب ضربه لإخراج طاقة العنف والسادية والإحباط بالداخل، فلم يتركوه إلا وقد غيروا تشخيصه من (اشتباه تعاطي المخدرات) إلى (صدمة ناجمة عن نزف داخلي)..

نعم.. القصة ترينا الكثير من السادية والعنف الكامن في النفس البشرية.. ترينا الحيوان الذي نخفيه تحت قشرة مخنا عندما يرى النور، والفكرة هنا أن هذا يعكس منظومة كاملة من الخلل في النفسية العربية والإحباط والتوتر، لكنني لا أرى فيها استهدافًا للمصريين من قبل اللبنانيين.. السؤال بصراحة: هل لو كان هذا الشاب تونسيًا أو سوريًا كانوا سيطلقون سراحه ويعتذرون له ؟... ماذا يحدث في أية قرية مصرية يموت طفل من أطفالها على الطريق السريع؟.. ماذا يحدث لسائق السيارة المصري؟. وماذا عن إشعال

الإطارات وتحطيم السيارات المارة كلها، وتدخل قوات الأمن المركزي لتفتح الطريق ؟

ومن جديد – كما في أيام الجزائر – انتهـزت وسـائل الإعـلام هذا الحفل، ووقعت في فخ نـصبه الإعـلام الإسـرائيلي بالتأكيـد.. إن هـذه الجمـاهير أظهـرت سـادية لعينـة، لـذا حـان وقـت ممارسـة الماسوشية الألعن: كل العرب يكرهون المصريين.. تعالوا نتلذذ بهـذه الفكرة وليحك كل منا تجربة مماثلة سابقة تجعل دمك يغلي. تعـالوا نتشاجر على شبكة الإنترنت بين من يقولون إن هـذه شـعوب لقيطـة غمرها خير مصر يومًا، ومن يقولون: هذا مصري فهـو يـستحق إذن. هناك من قال إن هذا طبيعي لأن القرية شيعية (غـير صـحيح) ومـن قال إن هذا طبيعي لأنها قريـة مـسيحية (غـير صـحيح). هـذا صـيد واضح في الماء العكر أصلاً.

العاقل الشريف دائمًا د. محمد المخزنجي – وهو طبيب نفسي – يلقي باللوم على ظاهرة كراهية الأجانب (وليس المصريين) ويقـول : ما حدث في "كترمايا" يتعلق بحالة الانحطاط العربي الذي يـشملنا جميعـاً، وهـو انحطـاط نفـسي وروحـي مـرتبط بالانحطـاط الـسياسي

والاجتماعي الذي يهيمن على عالمنا العربي إلا قليلاً، قليلاً جداً، وهو أمر يتجاوز كثيراً حدود غريزة الثأر التي عادت باندفاع محموم في ظل عدالة بطيئة غير ناجزة، وألاعيب قانونية لمحامي الشياطين، وفساد لا يمكن استبعاد وصوله إلى منصّات القضاء".

ثم في موضع آخر يقول: "كل لغو مثار عن أن الجريمة تحطّ من كرامة مصر والمصريين، هو تغطية على حقيقة أن الإهانة بدأت وتبدأ من هنا، من الداخل المصري نفسه؛ حيث المناخ الفاسد يدفع بمئات آلاف المصريين الشباب، للبحث عن مكان آخر في العالم غير وطنهم الذي - بسبب تراكمات سياسية آثمة- لم يعد يوفر لهم فرصة لحياة كريمة أو طموحاً مشروعاً؛ فنفروا إلى هجرة شرعية أو غير شرعية في ظاهرة لم تشهدها مصر من قبل".

نعم.. إن قائمة الاتهام طويلة معقدة.. لكن صورة الفتاة التي تموت ضحكاً على مشهد بقرة مقيدة بالحبال تتشحط في دمها لا تفارق ذهني، وأعتقد أن السؤال يبدأ هنا.

عباس مش جدع!

تابعت بنصف اهتمام أخبار القافلة المتجهة لغزة لتوصيل المعونات وربما إحداث ثقب في الحصار. هذه الأخبار كثيرة على كل حال، وفي الوقت نفسه لم أعتقد أن هناك خطرًا حقيقيًا على أعضاء القافلة.. هي لعبة إعلامية مدروسة جيدًا تهدف إلى إحراج إسرائيل وفضح تعنتها، وربما يصيب مصر جانب من الهجوم اللفظي كذلك. السيناريو المتوقع والمنطقي هو أن تحتجز الحكومة الإسرائيلية القافلة عدة أيام ثم تعيدها من حيث جاءت.

كان هذا اعتقادي إلى أن فتحت قناة الجزيرة في ذلك اليوم، فوجدت المذيعة تتحدث عن الاعتداء على سفن القافلة.. بل رأيت جرحى ينزفون وأناسًا يرقدون على الأرض غارقين في برك دم، مع

حديث عن الفعل الإجرامي وكلام عن 19 قتـيلاً ونحـو 50 جريحًـا.. وهناك لقطات من على سطح سفينة توحي بحـرب.. لا شـك أن عـددًا كبيرًا ممن رأيتهم أمس يتناولون طعام الغداء صاروا موتى غـارقين في دمهم.

يا نهار اسود ومنيل!... لم يبلغ أكثر كوابيسي جموحًـا هـذه الدرجة. هل جن الإسرائيليون تمامًا؟.. كل طفل يعرف أن هذه سـفن مدنية محملـة بنـشطاء سـلام مـن كـل الجنـسيات. أي إن أيـة دولـة استعمارية تملـك عقـلاً كانـت سـتسمح بمـرور هـذه الـسفن وتكـسب نقطة، أو – إن كانت ماضية في غيها – تحاصر هذه الـسفن عـدة أيـام لتمنعها من المرور وتضطرها إلى العودة. أمـا أن تطلـق النـار وتحـدث مجزرة فهو الجنون بعينه.

هل جن هؤلاء وصارت لهم بدل العقول عبوات من النابالم، أم هم يعرفون ما يفعلون جيـدًا؟.. لعلـهم أرادوا البرهنـة علـى أنهـم لا يمزحون ولا يهادنون على طريقة (الصدمة والترويـع). لقـد اعتـادت إسرائيل عدم العقاب.. أدمنته منذ مذبحة دير ياسـين مـرورًا ببحـر البقر ومذبحة قانا وانتهاء بمهاجمة هذه القافلة المدنية.

وماذا عن دم الغربيين الذين ماتوا أو جرحوا ؟... لقد اعتدنا أن الدم الغربي له ثمن إلا في هذه المواقف.. لقد رأينا في موقف سابق كيف تلقى الناشطون الغربيون علقة على يد الشرطة المصرية لم يتلقها حرامي في مولد أو حمار في مطلع، ولم تتكلم دولة غربية واحدة لأن هؤلاء ضربوا أثناء قيامهم بعمل مشين هو الاحتجاج على إسرائيل.

لقد رأينا الجرافة الإسرائيلية تهشم رأس راشيل كوري في جريمة موثقة جيدًا، وهي مواطنة أمريكية أي أن دمها غال جدًا، لكنها لاقت حتفها وهي تدافع عن الفلسطينيين.. إذن فلتمت بلا ثمن، ولتتسامح الحكومة الأمريكية كما تسامحت مع قتلى السفينة ليبرتي من قبل.

على الفور تداعت الأحداث بسرعة، وبدأ الروتين المعروف الذي يتكرر كلما حدثت مذبحة: اللعبة المملة مستمرة.. غضب.. مظاهرات في عدة عواصم.. اجتماع عاصف في مجلس الأمن.. العجز عن اتخاذ قرار يوجه اللوم لإسرائيل خاصة أن الفيتو الأمريكي جاهز، وعضو الولايات المتحدة يصحو من نومه يوميًا ليستعد للفيتو إلى أن يجيء المساء فينام.

كالعادة ظهر عمرو موسى وبدا منهمكًا ومتعجلاً جدًا تحاصره الميكروفونات، و دعا لاجتماع مجلس الجامعة العربية، ثم أدلى بتصريح مهم جدًا هو أن إسرائيل على ما يبدو لا تريد السلام!.

تذكرت صديقًا لي يعاني مشاكل لا تنتهي مع جاره (عباس).. الجار قد ألقى القمامة أمام بابه.. سكب الماء القذر على غسيله.. في كل مرة يأتي صديقي لي ليقول في دهشة: "تصدق عباس ده طلع مش جدع ؟! "..

وتستمر نفس المسرحية.. عباس جرجر صديقي في الأقسام واتهمه بالتحرش بزوجته، واستأجر بلطجية لضربه، واستأجر نسوة يمزقن ثياب زوجته في الشارع.. في كل مرة يأتي صديقي ليقول وهو يجفف عرقه أو دمه: "على فكرة عباس ده طلع مش جدع! ". فأجن أنا غيظًا.. عباس فعل كل شيء ممكن ليثبت أنه وغد، فماذا تنتظر أنت ؟

بالله عليكم كيف تثبت إسرائيل أنها غير جادة في عملية السلام، بل هي لا تريد السلام أصلاً؟.. ماذا تفعل وعلى أي شيء تقسم؟.. أحرقت الديار وقتلت الأطفال وخنقت غزة وأنتم مصرون

على أن السلام خيار استراتيجي.. كيف تثبت هذه الدولة المسكينة أنها عدوانية شيطانية و(مش جدعة)؟.. لو علقت أطفالكم على المشانق وسكبت عليكم الكيروسين المشتعل، لظللتم تعتقدون أن السلام ممكن.. فقط إسرائيل تجعله صعبًا بعض الشيء.

كلما شعرت بأنني فاشل في حياتي أو لم أحقق شيئًا، تذكرت وزراء الخارجية العرب.. عندها أشعر بأنني رائع وترتفع معنوياتي. كل كائن في العالم له نفع ما، حتى الذبابة تلعب دورًا عجيبًا في أنها تنقل لقاح شلل الأطفال من طفل لآخر قد يكون غير مُطعّم، لكن من العسير فعلاً أن تجد نفعًا لهؤلاء السادة.

يأتي رد الفعل الأقوى – كما هي العادة منذ أعوام – من تركيا.. ويبدو أن نبوءة هيكل القديمة عن تضخم دور دولتين محوريتين في المنطقة هما تركيا وإسرائيل كانت دقيقة جدًا. هذا الكلام قيل منذ خمس سنوات تقريبًا.. لا شك في أن تركيا احتلت بالضبط الموقع الذي كان يجب أن تحتله مصر، حتى أنها توشك أن تصير الشقيقة الكبرى لكل العرب، بينما مصر مشغولة.. بم بالضبط ؟؟؟ بانتخابات الشورى ومشاكل شوبير ودية سوزان تميمي ومباراة

الجزائر وأشياء كثيرة جدًا لا جدوى منها غالبًا.

إن لهجة تركيا قوية وغضبتها صادقة بلا شك، ويبدو أن هذا راق للعرب جدًا.. ان يكسبوا في صف القضية الفلسطينية دولة قوية شامخة مثل تركيا.. دولة من الدول التي يعمل حكامها من أجل شعوبهم لا ضدها. إن تركيا وإيران عمق استراتيجي إسلامي لابد من الاستفادة منه كما قال الأستاذ فهمي هويدي يومًا، ومن الخطأ أن نفقد إيران لأن الولايات المتحدة أقنعت البعض أن إسرائيل أقرب لهم منها. لماذا تعالت صيحة (هؤلاء رافضة يسبون الصحابة) بعد هزيمة إسرائيل مرتين في لبنان؟ لم يتغير شيء وتاريخ الشيعة وفكرهم معروف، فلماذا تعالت حرارة الشحن في الأعوام الأخيرة بالذات ؟

لاحظ بعض المعلقين أن لهجة الغضب التركية بدأت تخف مع الوقت، ولربما تغلبت لغة المصالح الاقتصادية والاستراتيجية في النهاية.. إن المصالح الاقتصادية أقوى من أية مبادئ أو عواطف، والدليل أن الدول الغربية لم تحرك ساكنًا ضد إسرائيل بينما المظاهرات الغاضبة تملأ شوارعها، لكننا بالتأكيد نشهد أيامًا فريدة. عزلة إسرائيل تتزايد برغم أنها تثبت للمرة الألف أنها فوق

العقـاب.. جنـون القـوة يعميهـا تمامًـا.. ساسـتها يتـصرفون بغبـاء واضح.. أية جولة في المواقع الغربية علـى الإنترنـت تتـيح لـك قـراءة كلام لم تتصور أن يكتبوه عن إسرائيل من قبل، لدرجة أنني حـسبت بعض العبارات قد كتبها عرب. إن الحقيقة التي نعرفهـا نحـن منـذ عقود قد بدأت تتكشف ببطء للغرب. بالتأكيـد سـتكون هنـاك قوافـل أخرى ولسوف يزداد موقف إسرائيل سوءًا. لا جدوى من أوباما فهـو مجرد رجـل مثقـف طيـب وغلبـان أمـام الديناصـورات الـتي تحـرك السياسة الأمريكية. لا جدوى مـن الحكومـات العربيـة فقـد ارتـضت الجلوس في كواليس التاريخ تراقب المسرحية الدائرة علـى الخـشبة، ولا تجرؤ على المشاركة ولـو بـسطر.. فقـط تكتـشف بعـد كـل صـفعة جديدة أن (عباس مش جدع).

رجل لا يتعب

مقالات هذا الرجل تنهمر علينا من كل صوب بحيث لا يمكن ألا تعلق عليها. وبرغم إدراكك التام لعدم جدية ما يقول وصعوبة التعامل معه كرأي، فإن كثرة الشيء وغزارته تعطيانه أهمية لا شك فيها.. عندما يكثر البعوض فلا يمكن أن تتجاهله مهما حاولت والرجل يدرك ذلك.

اسم الرجل هو موريس صادق المحامى الذي يصف نفسه بأنه المستشار القانونى بالولايات المتحدة الامريكية ورئيس الجمعية الوطنية القبطية بالولايات المتحدة. يكتب الكثير من المثقفين عن التعصب الكريه الذي يجتاح المجتمع المصري، ويطالبون بأن يعم

الجميع حق المواطنة، هنا يأتي رجل كالأخ موريس يجعل هذه الرسالة شبه مستحيلة، لأنه وهو قابع في واشنطن يرسل رسائل كراهية لا تنقطع يشعل بها الداخل المصري، وعندما تتكلم عن نبذ التعصب يبرز لك أحدهم هذه الخطابات ويقول لك: "فلتر كيف يكرهوننا.. فلتر ما يقولونه سرًا بعيدًا عن عدسات التلفزيون ومكبرات الصوت! ".

للأخ موريس آراء عميقة جدًا في السياسة والتاريخ صححتْ الكثير مما كنت أعتقده، ومنها:

1- جماعة الأخوان المسلمين لم يؤسسها حسن البنا وإنما وجدت منذ أن غزا العرب مصر واحتلوها.

2- عبد الناصر كان من أهم دعاة الخلافة الإسلامية وقد أعلن قيام الدولة الإسلامية عام 1952..!.. معلوماتي أن عبد الناصر (بهدل) الأخوان المسلمين، وكان حكمه أقرب للعلمانية، لكني كنت مخطئًا كما يبدو. لكن الأجمل لم يأت بعد: " ونهبوا ثروات الأقباط واجبروهم على محاربة إسرائيل الدولة المسالمة والتى

تعيش فى أرض الميعاد بعد أن حرروها من الفلسطينيين المسلمين الغزاة لها". إسرائيل مسالمة؟.. هذه معلومة جديدة أخرى.

3- عبد الناصر طرده والده من منزله بعد زواجه من أخرى فكفله عمه وعطف عليه الاقباط فعلموه على نفقتهم.

4- في عام 67 اعلن عبد الناصر الحرب على دولة اسرائيل المسالمة وتدفق جيشه من المسيحيين والمسلمين وعبروا قناة السويس بأحدث الأسلحة فحطمته اسرائيل فى ست ساعات وقتلت مائة ألف. لماذا عبر ناصر القناة عام 67 إذا كان جيشنا يقف على الضفتين ؟! موريس يعرف.

5- اضطر الأقباط الى الدخول فى حرب 1973 ضد إسرائيل وبفضلهم وبفضل أمريكا عادت سيناء لمصر.

6- مسجد السيد البدوى كان كنيسة أيام الغزو العربى لمصر وحوله الغزاة الى مسجد وأطلقوا عليه السيد البدوى رمزا للحاكم المحتل.

7- من يفكر في إلغاء مولد أبي حصيرة يفعل هذا تمهيدًا لإلغاء مولد مار جرجس المسيحي!

8- حاول المجرم أحمد عرابى إقامة دولة الخلافة الاسلامية فضربه الانجليز واحتلوا مصر وأنقذوا الأقباط.

9- الإنجليز طردوا من مصر بعد ثورة 1919..

يقول كذلك: " سأدافع عن أهل بلدى المسيحيين الغلابة من أشرار مسلمين يقتلون ويذبحون البشر بكل الطرق وخاصة بعد صلاة الجمعة ". تصور هذا!.. المسلمون يذبحون البشر خاصة بعد صلاة الجمعة!... لم يحدث هذا الجمعة الماضية على ما أذكر..

ثم يقول: " ان عدد الاقباط 18 مليونًا يواجهون نفس المشاكل من الإرهاب الإسلامى الذى يواجهه اليهود الخمسة ملايين داخل اسرائيل". لأ بأه.. هل الرجل قال هذا الكلام فعلاً؟.. أنا أشك في أن هذه الخطابات مدسوسة عليه ويجب التأكد من أنه كتبها، ولو كان كتبها يجب التأكد من أنه يعي ما يقول، لأنه بهذا يفصل أقباط مصر ليضعهم في وعاء واحد مع يهود إسرائيل.. ويعتقد أنه بهذا يقدم لهم خدمة!..

هناك الأخت مارينا ميخائيل التي تقول في مقال بالإنجليزية: "منذ غزا الإسلام مصر والأقباط يعاملون كالكلاب..

تخيل هذا.. ثم تخيل أن من يعاملك هكذا هم أجانب!.. تخيل أن قومك يقتلون ويهانون ويعذبون.. تخيل أن تعامل كالفلاحين peasants من قوم يحتلون وطنك". لا أفهم كيف يُعامل الفلاحون، إلا إن كانت الأخت مارينا إقطاعية ممن يضربون الفلاحين بالسياط ويربطونهم في الساقية. ثم هل رأيت قبطيًا يُعامل كالكلاب من قبل؟.. هذه جعجعة تقصد بها إرضاء الأمريكيين لا أكثر ولتذهب الدقة والأمانة للجحيم.

أذكر واحدًا من هؤلاء اتصل بقناة الجزيرة ليقول إن الأدب العربي (كله عُهر) وعلينا أن نرجع للأدب الفرعوني العظيم!..هكذا ببساطة قرر أن ما كتبه المتنبي وأبو العلاء المعري وطه حسين و.. و.. كله عهر.. فقط قال مداخلته بالعربية ولم يقلها بالديموطيقية للأسف!

مشكلة الأخ موريس إذن ليست مع المتطرفين – وهي مشكلتنا جميعًا – ولكنها مع الإسلام نفسه، وهو ينطلق من افتراض ساذج أن أمريكا لا تنام من شده الوله بالأقباط، وأن الأسطول السادس جاهز للتحرك لو صرخ أحدهم (وا بوشاه!).. بينما أمريكا بالفعل لا

يعنيها في المنطقة سوى إسرائيل والبترول.. ولو اقتضت مصلحة إسرائيل تعذيب الأقباط لجاء وفد من أعضاء الكونجرس يرأسه السناتور (مش عارف مين) للإشراف على هذا. قضية الأقباط لا قيمة لها عندهم إلا حق التدخل. بالفعل يحسن الأمريكان استغلال هذه النقطة كما يستغلون نقطة الديمقراطية، وهم غير جادين في النقطتين.. مجرد طريقة للتدخل من حين لآخر.. مسمار جحا يطمئنون عليه كلما راق لهم هذا..

ثم هو لا يبالي بأن يشعل النفوس هنا، وأن يتأذى من كلامه طانط أنجيل وعمو مينا وبشوي الذين ظلوا في شبرا ويبتاعون الفول والخبز بالمسامير صباحًا. إنه مستريح في واشنطن دي سي ويعتقد أن كل كلمة يقولها تقربه منهم درجات. إنه يقف على الرصيف الآخر يشتمك عالمًا أنك لن تصل إليه..

ما كل هذا الحقد في خطاباته؟.. يمكنك أن تراه يضغط على ضروسه وقد تضخمت العضلة الماضغة عنده من فرط الغل. هل هذه خير دعاية للمسيحية دين المحبة والسلام؟.. أنت لا تكف عن ترك انطباعات سيئة عن المسيحية كالتي يتركها ابن لادن عن الإسلام.

أرى مثل هذه العضلة الماضغة المتضخمة لدى آخرين مثل مجدي خليل و شفيق أبو زيد قس الفاتيكان والمحاضر بأكسفورد الذي تستضيفه قناة الجزيرة كثيرًا.. كلاهما يملك شحنة لا بأس بها من الغل، لكنهما كذلك يقولان كلامًا منطقيًا ذكيًا جديرًا بمناقشته..

سألت صديقي القبطي عن رأيه في هذا.. صديقي هذا سليط اللسان ولا يجاملني أبدًا، وقد ضحك كثيرًا عندما قرأ هذا الكلام وقال:

ـ"هذا الرجل كالأطفال يتجاهل الحقائق الواضحة كالشمس لمجرد أن يغيظك.. كأن الرجل يفقأ عينه ليخيفك"

ثم أضاف كلمة لن أنساها:

ـ"عندما يذهب مهندس الكمبيوتر اليهودي (ديفيد كاوفمان) إلى نيويورك ويصنع لوبي، فهو يصنع لوبي ذكيًا يسيطر على مصائر العالم، بينما يذهب هذا الأخ إلى نيويورك ويحاول أن يصنع لوبي فيأتي شديد الغباء.. النتيجة هي أن الأمريكان يفهمون جيدًا تفاهة ما يقول، لكنهم يحسنون استغلاله "

لا تتوقع أبدًا أن يرحل المسلمون عن مصر يا عم موريس

ويعودوا للجزيرة العربية، كما لا يتوقع أحد أن تختفي المسيحية من مصر.. إذن فلنتعايش كما كنا دومًا..

على كل حال واضح أن أقباط المهجر لا يهيمون به حبًا – وهذا أراحني كثيرًا – إذ صرح مايكل منير رئيس هيئة أقباط المهجر: "لقد أصدرنا البيان بالتبرؤ من مجموعة موريس صادق بعد أن ضج الأقباط المصريون في الولايات المتحدة منه فقد كان يحصل على مقابل مادي كبير لإنهاء إجراءات إقامة الأقباط في أمريكا وكان يغرر بهم بتقديمه لنفسه على أنه محام ويستطيع مساعدتهم. وكانت الطامة الكبرى عندما طالب بمساعدة شارون وهو ما أظهرنا في شكل الخونة وهذه جريمة لأن الشأن القبطي شأن مصري أولا وأخيرًا".

على موريس صادق لو لم يكن قد كتب هذا الكلام أن يعلن أن هناك من يستعمل اسمه، وأن يعلن هذا في وضوح، لأن هذه الخطابات هي بنزين يُسكب فوق نار حتى لو لم يكن كلامه معبرًا إلا عن رأيه الخاص.

حسب الهوية

أتذكر راجفاً القصة التي حكاها لي أحد المصريين عن صديق له، ذهب إلى بيروت للهو في أعوام الحرب الأهلية المنحوسة. ركب سيارة نقل عام فكان من حظه الأسود أن استوقفتها في شارع جانبي مجموعة من الشباب الملثمين المدججين بالسلاح.. راحوا ينزلون ركاب السيارة واحدًا واحدًا فيسألونه عن ديانته ويفحصون أوراقه، والمشكلة هي أن باقي ركاب السيارة لا يعرفون الإجابة.. هذا يتركونه ينصرف، وهذا يأخذونه على جنب إلى جوار الجدار فيذبحونه بالسونكي كالدجاجة.. كان هذا كمين (إعدام حسب الهوية) من الكمائن التي انتشرت في لبنان وقتها. قل لي بربك ما هي الإجابة الصحيحة؟.. ما هي الإجابة الصحيحة؟.. بسرعة!..

هل الصواب أن تكون مسلمًا في هذه اللحظات أم مسيحيًا؟.. لم يعرف صاحبنا الإجابة قط لأن دوره جاء.. وعندما وقف وسط الجثث المذبوحة لمن سبقوه، وعندما طلبوا منه أوراقه ظهرت دورية من الشرطة؛ ففر المعتدون ونجا بمعجزة شبه سينمائية.. عاد المصري على الفور إلى وطنه، ويحكي صديقي أنه ظل أعوامًا يجلس في غرفة خافتة الإضاءة يحملق في الجدار ولا يتكلم.. لقد احترق جهازه العصبي ولا تثريب عليه..

من انتصر في حرب لبنان ومن الذي فرض كلمته بعد كل هذه الدماء؟.. لا أحد يعرف. ما أعرفه يقينًا هو أنهم يحلمون بهذا المستقبل لمصر ويسعون له سعيًا حثيثًا متحمسًا. المجد للكراهية والحقد والدماء، وليتشرب الأسفلت دماء أبنائنا.. فقط كلما رفع أحد المثقفين – مسلمًا أو مسيحيًا – صوته محذرًا مطالبًا بالتعقل اتهموه بأنه متخاذل وضد الدين.. هنا يجد المسلم الذي يطالب بالتعقل نفسه في موقف حرج عندما يعرض أحد الغاضبين عليه خطابًا من موريس صادق أو مقالاً لأحد أقباط المهجر، ويقول له: "أنظر لترى كم يكرهوننا! "

اعتدت أن أقول إن معاملة المسيحيين في مصر غير متوازنة؛ فهناك تعصب في الشارع لا شك فيه، وهناك تدليل لا شك فيه لدى الجهات الأمنية. وقد نشرت خواطر طالب جامعي مسيحي يصف ما يشعر به عندما يسمع الشتائم تنهال على دينه من زاوية جوار بيته، وأعرف كيف كان الطلبة المسيحيون يعاملون في اللجان الشفوية في الكليات، لكن في الوقت نفسه حكيت عن ضابط حرس الجامعة الذي يهدد الطالب المسلم المعتدى عليه كي يتنازل عن المحضر الذي يريد تحريره ضد المسيحي الذي كاد يفقأ عينه.. . هناك عدم توازن طيلة الوقت، وهذا يؤدي إلى اختلال واضح، وقد كتب د. علاء الأسواني في مقاله الأخير يحلل العلاقة المعقدة بين الدولة والكنيسة، حيث تستعمل الأخيرة مع الدولة طريقة العصا والجزرة.. اعتصامات في الداخل وضغوط من أقباط المهجر، وفي الوقت ذاته تأييد كامل للنظام وفكرة التوريث..

قضية وفاء قسطنطين وقضية كاميليا جعلتا الشارع المصري يغلي من الناحيتين، والسبب الرئيس في رأيي هو الصمت الزائد المتعسف من الكنيسة في القضية الأخيرة بالذات. كان الكل يتكلم

والترتيب للمظاهرات والوقفات الاحتجاجية يجري، بينما الكنيسة صامتة تمامًا على طريقة (إنهم يقولون.. دعهم يقولون)، وكانت تكفي بضع كلمات لتهدئة الأمور وكان يكفي النفي أو الإثبات.. لكن كل ما فعلوه هو أن صرح أحدهم: "لقد تم غسل مخها ونحن نغسل مخها المغسول!. ".. هل هذا كلام؟.. لا غرابة في كون العنف في النفوس بلغ مبلغًا لا يوصف، وقد كتب الأستاذ فراج اسماعيل في موقع المصريين يقول إنه لا يملك معلومات كافية تسمح له بالكتابة عن كاميليا، خاصة وان لديه كصعيدي يعرف بيئتها جيدًا ما يدعوه للتحفظ على ما يُقال، فكادت الصفحة تحترق من الهجوم الذي انهال عليه، مع قدر لا بأس به من الشتائم. كمية عنف لا توصف.. وفي النهاية ظهر فيلم غامض تنفي فيه كاميليا إسلامها، مما جعل الجميع يتحولون إلى خبراء في علم الفراسة وتحليل الصورة ويؤكدون أن هذا الفيلم مزيف.. أحدهم قال إنه طبيب وقد قام بتحليل صوتها على جهاز كشف الكذب فوجدها كاذبة (جهاز كشف كذب من دون قياس نبض وضغط دم ؟!). لو أرادت الكنيسة أن تحسم الأمور لظهرت كاميليا في النور الساطع وفي برنامج جماهيري محترم

لتتكلم، ولسوف يحسم الأمر.. هذا لو كان ما تقوله صادقًا فعلاً.

زاد الطين بلة مع تصريحات الأنبا بشوي الأخيرة في (المصري اليوم). لقد اعتدت سماع هذه الأشياء من موريس صادق وسواه من أقباط المهجر، حتى صرت أشعر بقلق لو مر أسبوع ولم أسمعها، لكن الكلام هذه المرة يأتي من ثاني أهم سلطة مسيحية في مصر.. الرجل الذي يعرف جيدًا ما يقول ويعنيه حرفيًا.. لقد استفز هذا الكلام المثقفين، فتأمل ما وقعه على نجار المسلح وسمكري السيارات والخباز..

اكتشفت أشياء مثيرة فعلاً من هذا الكلام.. أنا ضيف على مصر وأبي ضيف.. وجد جد جدي كان ضيفًا.. بل الرئيس مبارك نفسه ضيف.. صحيح أن المسيحيين يمثلون 6٪ من تعداد السكان – حسب إحصاء أجراه مسيحي – فنحن المسلمين ما زلنا ضيوفًا منذ 1400 سنة!.. حتى أهل البلاد الذين أسلموا صاروا ضيوفًا فجأة!.. ولماذا لا نقول إن المسيحيين ضيوف على عبدة آمون وإيزيس وعبدة زيوس وأبوللو من بعدهم.. ؟

الأنبا بشوي يكرر نفس فكرة أقباط المهجر عن الغزاة العرب الذين جاءوا ليستولوا بالسيف على البلاد من أهلها.. بصراحة لا

أصدق أبدًا أن أي دين يمكن أن ينتشر بالسيف في بلد مهم ذي كثافة سكانية عالية مثل مصر، وإلا فهي فترة قصيرة ثم يعود الدين الأصلي.. المسلمون لم يحاربوا في إندونيسيا ومعظم جزر جنوب شرق آسيا ذات الكثافة السكانية المخيفة، وكل من يحاول فرض عقيدة على هذه الشعوب نهايته (زي الطين) كما قال الجنرال مكارثر يومًا ما، فكيف أسلم هؤلاء جميعًا؟. الإسلام دخل مصر بتفاعل كيميائي بطيء جدًا دام عشرات العقود، وعن طريق ملاحظة أهل البلاد للاختلاف الواضح بين سلوك الجندي المسلم وسلوك الجندي الروماني البلطجي.. وككل التفاعلات الكيمائية لا الفيزيائية، صار جزءًا من تركيب هذا البلد ولا يمكن أن يخرج منه أبدًا..

لو صارت مصر كلها مسيحية ورحل المسلمون الضيوف كلهم للجزيرة العربية، فهي ليست النهاية، لأن الأنبا بيشوي يشن الحرب كذلك على البروتستانت الذين يحاولون نشر دينهم عن طريق المسابح التي تضم الجنسين معًا!. لابد من رفض الآخر.. كنت ألوم بعض المسلمين على هذا التفكير فاتضح أنه تفكير عام يشمل المصريين جميعًا.. كلمات الأنبا بيشوي – التي أتمنى ألا تكون قد نقلت بدقة

– تجعل من المستحيل أن تدافع عن المسيحيين، فكيف أدافع عمن يعتبرني ضيفاً ؟

جاء البارود الذي يلقى على النار من حوار أحمد منصور مع المفكر الإسلامي محمد سليم العوا في قناة الجزيرة. العوا مفكر محترم وكلامه يوزن بالميكروجرام ولا يخرج إلا بسبب.. انتقدت ذات مرة أحمد منصور على حوار أجراه مع عالم أمريكي مشكوك في مصداقيته بصدد انفلونزا الخنازير، وقلت إن كل ما يريده هو تقديم حلقة مثيرة، لكن الحلقة هذه المرة تستمد أهميتها من ضيفها الذي يعرف الجميع تاريخه. إن لكلامه ذات ثقل وأهمية كلام الأنبا بيشوي. بكلمات واضحة قال العوا إن هناك سفينة تم ضبطها من مباحث أمن الدولة قادمة من إسرائيل وعليها أسلحة ومتفجرات، وتعود ملكيتها لنجل وكيل مطرانية بورسعيد، وقال إن السلاح يخزن في أديرة الصحراء. لقد صارت الأمور معقدة ولم يعد الكلام عن الإسلاميين المفترسين الذين يقتلون المسيحيين العزل وارداً. لقد فقد أقباط المهجر أقوى ورقة في يدهم. الحلقة مليئة بالاتهامات الخطيرة والكل يحفظ ما قيل فيها على كل حال.

الآن صارت الأمور خطرة فعلاً، والنفوس مشحونة بحق وأنا أعني ما أقول..

على الدولة أن تكف عن هذا الصمت والخوف من وعلى مشاعر واشنطن وأعضاء الكونجرس، وأن تخبرنا فعلاً بما تعرف. كرر هيكل مرارًا أن لرئيس الجمهورية في مصر مهمتين يجب أن يستعمل فيهما كامل قوته وصلاحياته – لدرجة العنف لو اقتضى الأمر – هما ماء النيل والوحدة الوطنية. على الدولة أن تثبت الوحدة الوطنية بأية طريقة كانت، وهي تعرف أن أسلوبها المتخاذل جعل النفوس تغلي، واسباب الغليان متعددة لكن هذا أخطرها.

على الكنيسة أن تنفي هذا الكلام بوضوح وأن تقاضي العوا.. أنتم تقولون إنه كاذب يسعى للإثارة، فلتجعلوا المحكمة تؤكد أو تنفي هذا.. هذا الاستعلاء والغموض سوف ندفع جميعًا ثمنه فيما بعد، عند أول كمين إعدام حسب الهوية نقابله..

تريد حلاً

عندما كتبت عن (الداعية الشاب المتأنق الذي هو تكرار لظاهرة الداعية النجم البروتستانتي في الغرب)، اعتقد شباب كثيرون أنني أتحدث عن عمرو خالد، بينما الحقيقة أنني بالفعل أعتبر عمرو خالد من ضمن إيجابيات قليلة جدًا في حياتنا اليوم، ومن قصدتهم بالكلام دعاة آخرون لا داعي لذكر أسمائهم.

مجتمعاتنا اليوم تواجه مشكلة كبرى في كلام من لا يعرف عما لا يعرفه، وأعتقد أن أكثر ثلاثة مجالات يتم انتهاكها بهذه الطريقة هي الدين والطب والقانون.. إن العبقري الذي يفهم كل شيء في الطب والدين والقانون موجود في كل مكان لحسن الحظ. إنه أول رجل تقابله لو نزلت إلى الشارع الآن، لكن عمرو خالد لم يزعم قط

أنه أستاذ شريعة أو إنه يجيد الإفتاء.. فقط هو يجمع الشباب حول مشروع مشترك، ويذكرهم أن الدين في النهاية هو وسيلة لتحقيق قيم العدل وقيم العمل وقيم السماحة.. عندما أجد الشباب على شبكة الإنترنت يتناقلون محاضراته أقول لنفسي إن قسطًا لا بأس به من هؤلاء كان سيقضي ذات الوقت في تدخين البانجو وتعاطي البرشام.. لقد نجح الرجل سواء قبلنا ذلك أم لم نقبله. النتيجة الحتمية لهذه الشعبية بين الشباب هي أن يُحارَب.. كل من يجذب الشباب ويجعلهم يلتفون حوله تعتبره الحكومات خطرًا داهمًا منذ أرغم سقراط على شرب سم الشوكران حتى اليوم.. دعك من الحرب الشعواء ضده على شبكة الإنترنت.. تم تكفيره مرارًا وأطلقوا على برنامجه (على خطى الشيطان).. الخ..

منذ البداية أؤكد أنني لم أدرس الشريعة وغير متخصص، لكني – بحكم كتاباتي– أملك اتصالاً قويًا بالشباب وأعرف ما يفكرون فيه، كما أتلقى عددًا هائلاً من خطاباتهم كل شهر، لهذا أقدم للسادة المتخصصين هذا الخطاب الذي وصلني من قارئة في العقد الثالث من عمرها عبر البريد الإلكتروني.. لم أتدخل فيه إلا ببعض

التصحيحات اللغوية لأنها ككل الشباب تنصب خبر (إن) وتكتب (هاذا) و(ذالك).. وأقول إنني لا أطلب من المتخصصين سوى النصح.. خلاص ؟

تقول القارئة: "أنا فتاة محجبة استلمت العمل في شركة من وقت قريب. وأنا من أسرة متدينة محافظة. لكن بصراحة يا سيدي بدأت أقرأ أشياء غريبة لم أسمع بها من قبل مثل انه على ان المرأة العاملة ان ترضع زميلها فى العمل حتى تصح الخلوة (تصورت نفسى افتح البلوزة لارضع زملائي فى العمل واحدا واحدا) وعندما قلت اننى لا اصدق قالوا لى ان هذه الفتوى من الازهر وان هذا الكلام صحيح. ثم قرات ان الصحابة كانوا يتباركون بشرب بول الرسول عليه الصلاة والسلام وقرأت انه لو سقطت الذبابة فى الشاى فعلي ان اغمسها واشرب الشاي. و قرأت ان شرب بول الابل يشفى امراض الكبد. لماذا لم نسمع هذا الكلام من قبل ولم نسمع شيء كهذا فى المدرسة؟. بصراحة يا دكتور اهتز ايمانى كثيرا وربنا يسامحنى فاما ان هذه الاشياء ليست فى الاسلام اذا لماذا يلصقوها به ؟ او هى في الاسلام وهم يخفوها عنا طول هذه السنين اذن هو دين يخفون عنا

اشياء فيه. حرام عليهم والله العظيم هو خلاص يعنى كـل حاجـة فـى الدين تمام عندنا عشان يطلعوا الكلام ده ؟ لو صح تبقـى مـصيبة ولـو مش صح بيقولوا كده ليه ؟

"أرجو أن تساعدني لأنى حيرانة وحاسة انى بأراجع كل شئ في حياتي من جديد. "

انتهى خطاب القارئة، ولن أعلق أو أبدي أيـة آراء.. أنـا غـير مؤهل لذلك.. فقط أنا أطلب من السادة العباقرة الذين وضـعونا في هـذا الموقف أن يتصرفوا هم.. لقد اهتز إيمان هـذه الفتـاة البريئـة وشـكت في كل شـيء بفضلكم، وهـو جهـد عظـيم قـد لا يقـدر عليـه مـاركس وسارتر ونيتشه وشوبنهاور معاً، فعليكم أن تساعدوها.. أنا بصراحة لا أستطيع..

فقط أرجو ألا تتعاملوا معها بطريقـة: احنـا كـده واللـي مـش عاجبه الباب يفوت جمل..

أذكر ما قاله صديق لي عن أبيه المستـشار شـديد التـدين الـذي توفاه الله منذ عشر سنوات: "لقد عاش أبي ومـات دون أن يـسمع عـن

بول الإبل ولا رضاعة الكبار، فهل أثر هذا في تدينه أو أمانته في عمله؟.. هل أخّر ركعة واحدة عن وقتها، أو بخل بزكاة، أو تقاضى رشوة ؟"

أسأل بأمانة، ولا أقصد أية تلميحات فأنا فعلاً أبغي المعرفة:
هل هذا الذي تقومون به مفيد للإسلام حقًا؟.. من الأكثر فائدة؟.. عمرو خالد الذي تكفره المواقع الأصولية وتعتبره دوائر الدولة دخيلاً؟.. أم ما تقولونه؟.. هل أنتم حريصون على الدين فعلاً أم على رضا المصادر البترو دولارية، وعلى الظهور في الفضائيات، وعلى إثارة فرقعات إعلامية مضمونة الدوي ؟

هل يهتم أحدكم بالبلبلة التي يحدثها في أذهان الشباب؟.. هل يهتم أحدكم بالخلل بعيد المدى الذي سببتموه؟.. لا أحد يبالي بهذا.. سوف تخربون قدر ما تستطيعون ثم تتركون الأطيان والعمارات للورثة، وتتركون الشباب لرب كريم يتولاهم..

حتى لو كان عمرو خالد غير متخصص، فهل نجا منكم علماء الدين الحقيقيون؟.. ماذا كتبتم وقلتم عن الشيخ (الغزالي) يرحمه الله، وماذا تكتبون وتقولون عن العلامة القرضاوي أطال الله في عمره؟

سوف تبحث الفتاة عن الحقيقة في المنتديات السلفية ولسوف تقابل نغمة أخرى هي خليط من التعالي الكهنوتي، وهو تعال يطول علماء الأزهر أنفسهم الذين ترى معظم هذه المواقع أنه لا قيمة لرأيهم، مع رغبة في التميز والتحدي بإطلاق كل ما هو غريب أو غير شائع، واحتكار كامل للحق في الكلام..

أذكر أن احد تلك المواقع كان يعقد مناظرة حول كتاب (الخلافات السياسية بين الصحابة)، لمحمد المختار الشنقيطي، وبالطبع كان رأي من أداروا المناظرة أنه مليء بالأخطاء كالعادة.. كان الطلب المنطقي لدى كل من تابع المناظرة هو قراءة الكتاب أولاً، هكذا وضعه صاحبه على رابط ليدخله من يرغب. هنا قام مشرف الموقع بحذف الرابط وكتب بالحرف الواحد: "ما دخل نشر الكتاب بالمناظرة؟ المناظرة تقوم على ردك على خصومك كل فقرة بمثلها، أما وضع الكتاب فلا علاقة له بالمناظرة"، وقال مشرف آخر في حزم: " وضع رابط الكتاب الآن ليس بجيد ولا فائدة منه لأن القصد من المناظرة التحذير من هذا الكتاب"! !.. إذن لماذا المناظرة أصلاً والحكم قد صدر منذ البداية؟.. لماذا لا يكتفون بنشر عريضة إدانة ؟

مـن جديـد أكـرر أنـني أطلـب النـصح ولا أقدمـه.. لـو كنـتم تخدمون الإسلام فعلاً بكل هذا، فأنا أعتذر لكم بشدة، واعتبروا كـأن هذا المقال لم يكن، ولكني أرجوكم مجددًا أن تعيدوا قراءة الآية 104 من سورة الكهف والتي لن أكتبها تفاديًا للأخطاء المطبعية.

في غير حالة الخطر

منذ أسابيع تعطل مترو المرج حلوان في محطة طرة البلد لأن مواطنًا مستهترًا قام بشد فرملة الطوارئ. الفكرة هنا أن باب المترو انغلق على قدم زوجته الحامل – زوجة الرجل لا المترو طبعًا – وبدأ يتحرك وجسدها يتدلى من المترو، مما دفع الرجل إلى هذه المخالفة الخطيرة. الخبر يؤكد في فخر أن الشرطة قبضت على الرجل وتم تحويله للنيابة التي لم تعطه وسامًا لسرعة بديهته وحسن تصرفه، ولكنها اتهمته باستعمال الفرملة في غير حالة الخطر! . هذا ببساطة يعني أن الحكومة لا ترى خطرًا في أن تسقط أم وجنينها تحت عجلات المترو، فنحن تجاوزنا الثمانين مليونًا والعدد في الليمون.. فلتأخذنا مصيبة إذن. كل هذا جميل ومفهوم.

أتكلم طبعًا باعتبار أن الخبر صحيح ونقل بأمانة. أحيانًا يتم نقل الخبر بطريقة تزيد الطين بلة، وإنني لأتذكر خبرًا نشر منذ أعوام في صحيفة قومية؛ عن القبض على اثنين من المتطرفين حاولا تكوين تنظيم سري، فقال المحرر لا فض فوه بالحرف: "بالقبض على الرجلين تبين أنهما يأمران بالمعروف وينهيان عن المنكر، وتم تحويلهما للنيابة! ". لو كنت مسئولاً حكوميًا لحولت المحرر العبقري للتحقيق لأنه أساء للنظام أكثر من ألف جريدة معارضة.

نفترض إذن أن الخبر صحيح.. لكن السؤال الحقيقي هنا هو: ما الذي تعتبره الحكومة خطرًا فعلاً؟.. سقوط أم وجنينها تحت العجلات ليس خطرًا، فمتى يبدأ الخطر ليعرفه المواطن الصالح؟. وما نفع الفرملة إذن؟.. أم هي عهدة تسلمتها الهيئة مع القطار الفرنسي ولم تجرؤ على نزعها ؟

تعال نقرأ معًا أجزاء من خطاب كتبه لي أ. ج طالب الهندسة السكندري، ويحكي فيه عن موقف آخر لا تراه الحكومة خطرًا:
"مساء يوم الاثنين الموافق 30 نوفمبر 2009، إتجهت برفقة ثلاثة من أصدقائي لنستقل الترام من محطة الإبراهيمية للذهاب إلى سان

ستيفانو، واستقللنا العربة رقم 221 خط رقم واحد (باكوس) نحو الساعة التاسعة مساء.

"وبمجرد ركوبنا للترام لاحظنا وجود نحو 20 شابًا تتروح أعمارهم بين 14-19 سنة - من الذين لا يظهرون سوى فى المواسم والأعياد ولا يفعلون أى شىء سوى قلقلة الأمن العام- يقومون بإستمرار بقذف زجاج السيارات المركونة أو السائرة بالقرب من الترام بالحجارة متوسطة الحجم، وقاموا بكسر وتدمير زجاج ما يزيد على 15 سيارة، ولم يحرك أحد ساكناً من ركاب العربة أو الكمسارى الذى يظهر على وجهه الجبن الشديد والذى كان مسئولاً عن العربة، ولم يحاول أحد منا أنا أو أصدقائى الإحتكاك بهم بسبب عددهم وإحتمال وجود سلاح معهم.

لكن إختلف الأمر عندما وجدنا أن بحوزتهم ألواح كبيرة من الخشب، يقومون بضرب المارة السائرين إلى جانب الترام بها من شبابيك وأبواب الترام أثناء سيرها، وقاموا بضرب الكثير من الناس بعنف، ومن ضمنهم كانت إمرأه تسير قرب الترام وتحمل طفلها على يديها! !!

إتجهت إلى الكمسارى بغيظ وسألته عن رقم العربة التى نستقلها وأخبرته أننى سأتصل بشرطة النجدة وأبلغهم بما يحدث، فأخذ يصرخ بكل ما أوتى من قوة لكى يصل كلامه إلى مسامع هؤلاء البلطجية "بلغ البوليس مش هيعملولك حاجة! ! " ولم أعلم ما حكمته فى هذا الصراخ سوى أنه لفت نظرهم أننى قد قررت الاتصال بالشرطة! ! كأننا فتحنا أبواب الجحيم، أخذوا يضربونا بألواح الخشب المدججة بالمسامير ثم توقف الترام تماماً بين محطتي باكوس وصفر، ونزلوا منها جميعاً وأخذوا يقذفونا بالحجارة، وجرى كل من في العربة واختبأ تحت الكراسى لكى لا يصاب أحد، وأصيب صديقى فى يده من أحد ألواح الخشب وكدنا نصاب فى رءوسنا بالحجارة أكثر من مره لولا العناية الإلهية !!

ثم وقفوا جميعاً أمام الترام وإمتنعوا عن التحرك إلا إذا نزلنا لهم، فوجئنا حينها بأغرب ردود الفعل، وجدنا السائق ترك مكانه فى العربة الأولى (كنا مستقلين العربة الثالثة والأخيرة) ونزل وصعد إلى عربتنا، وأخذ يعنفنا ويصرخ فينا ويطالبنا بأن ننزل من العربة حالاً لكى يتمكن هو من التحرك وإلا على حد قوله إن لم

نفعل ذلك فإنهم "سيقومون بتكسير عربته تماماً!! !"

فلننزل ونُقتل ولا يهمه سوى عربته! ! وعندما رفضنا النزول حاول خداعنا بقوله أنه يريد منا أن ننزل لكى نركب معه فى مقصورته حماية لنا، ونحن نعلم جيداً أنه لا يريد سوى التخلص منا ليهرب بالترام ويكمل طريقه.

"صرخ فيه جميع من بالعربة حينها أن يتركنا وشأننا ويتحرك، وقتها كنت قد تركته يصرخ وقمت بالإتصال بشرطة النجدة، رد عليّ شخص ما لا أعلم إن كان بطيء الفهم أم أنه يدّعى الغباء، قمت بشرح الموقف ووصفه وقلت له مكان توقف العربة أكثر من 5 مرات وهو يعيد نفس أسئلته أكثر من مرة، فأضطررت لإنهاء المكالمة. أخيراً بدأت العربة بالتحرك. بعد إنصرافهم وتحرك الترام إتجهنا وجميع الركاب إلى الكمسارى وأخذنا فى الصراخ أن هذه مسئوليتهم أن يوفروا الأمن للركاب، فقال لنا ما معناه أنهم طلبوا من الهيئة من قبل أن توفر أمنًا خاصًا بالهيئة أسوة بهيئة السكة الحديد لكنهم رفضوا الفكرة لتوفير النفقات، ولأن تلك الممارسات لا تحدث سوى في الأعياد والمواسم فقط ولا تستدعى الإهتمام نهائياً ! !

"فقلت له ولماذا لا تحاول إبلاغ الشرطة؟ قال لى "يابنى الشرطة فى أجازة كلهم دلوقتى، انت لما كلمتهم حد إهتم؟؟ انا بقالى خمسة وعشرين سنة شغال على الخط ده وكل مره بتحصل الحاجات دى ولا حد بيهتم، وانا مليش دعوه بالناس دى انا عندى عيال!!!!!"

"هذا هو ما حدث معنا، فى الإسكندرية فى مصر، وليس فى السودان، فهل سيهتم بنا أحد؟؟ أم أن الاهتمام كله من نصيب مطربينا وأعضاء الحزب الوطنى الذين أهينوا فى السودان بينما نحن فى الأصل لم يكن لنا أى قيمة داخل بلدنا ؟"

بلطجة العيد المعروفة، والسلوك الجماعي العدواني الخارج على القيود، وربما المخدرات كذلك.. كل هذا لا تراه الحكومة خطرًا..

يوم 21 نوفمبر يحاول عامل بشركة أتوبيس غرب الدلتا الانتحار بالوثب من فوق برج التقوية، لأنه يتقاضى 170 جنيهًا بعد 13 عامًا من العمل، ولم تتحمل كبرياؤه أن يعجز عن شراء كيلو لحم لأسرته في عيد الأضحى. لم يتراجع إلا بعد وصول المحافظ لسماع شكواه. هذا الحظ الحسن لم يستمر حتى يوم 3 ديسمبر،

حيث نعرف من الصحف أن ثلاثة شبان انتحروا في يوم واحد بسبب الفقر.. الأول عامل من دكرنس تزوج ولم يستطع أن يجد عملاً أو يستقل عن أسرته، وهكذا دخلت زوجته لتجده معلقًا بحبل. عاطل آخر ألقى بنفسه من الطابق الرابع في كفر الشيخ.. السبب ببساطة أن دخله 400 جنيه يدفع منها 300 إيجارًا لشقته. وفي الشرقية يفضل شاب ثالث – أكبر أخوته – أن يشنق نفسه لأن خطبته مهددة بالفسخ بعد فشله في العثور على شقة.

كل هذا ليس خطرًا.. الأمور تحت السيطرة، ومن ضمن الأمور المطمئنة كذلك لا ننسى قصة الطفلة مريم التي ترقد الآن في غيبوبة بسبب اللودر.. لا.. لم تقف أمام اللودر محاولة منعه من هدم منازل الفلسطينيين على طريقة الأمريكية (راشيل كوري)، لكن اللودر اقتحم بيتها بلا إنذار وهدم البيت على رأسها، وهو بهذا يبرهن على أن المصريين أشد كفاءة وحزمًا من الإسرائيليين (الخرعين) الذين يهددون بالهدم أولاً.

إذن ما هو الخطر بالضبط ؟... وما الذي يجعل الدولة تهب في حزم لتهوي بقبضتها؟.. أنا أسأل بأمانة لأنني مواطن صالح أكره

أن أزعج الدولة لسبب تافه. هل الخطر هو مائة شاب نحيل بنظارة يقفون على سلالم نقابة الصحفيين ؟ أم هو البرادعي أم ماذا بالضبط؟..

ركاب سوارس

سوارس كانت حافلة بلا محرك يجرها حصان في شوارع القاهرة قبل ظهور الترام، وكانوا يستعملون الاسم هكذا (سوارس) كعلم بلا أداة تعريف، وقد جرى تعبير (راحت علينا زي سوارس) على الألسنة بمعنى (زال عهدنا). هناك لعمنا العظيم (بيرم التونسي) قصيدة جميلة اسمها (ركاب سوارس) يصف فيها مغامرته مع وسيلة النقل الشعبية المهينة هذه:

ركاب سوارس بعيد عنك شلق هلافيت

والعبدلله معاهم وابن حنت حنيت

أول ما نركب يدور القفش والتنكيت

وإن طالت السكة نحكي لبعضنا حواديت

قصدت يوم الحسين أشرب هناك خروب

جات قعدتي بين جدع عايق وبين كركوب

وشابة فـ الوش قاعدة وابنها المقلوب

بيعوي زي اللي راكبه ستميت عفريت

ثم بلسانه الساخر الحاد الذي يمتلئ بالشاعرية والبلاغة كذلك يقول:

القفلة سارت تلملم كل صنف وصنف

في خطوة والتانية يتشعبط علينا جلنف

تذكرت هذه القصيدة وأنا في القطار المتوقف في لا مكان، لفترة طالت ثم عرفنا فيما بعد أنه إضراب عمال البلوكات.. قالها لنا رئيس القطار الجالس في الكافتيريا يدخن.. ثم دفن وجهه في كوب

الشاي كي لا يسمع احتجاجات الناس وغضبهم.. فقط من حين لآخر يعلن أنه غير مسئول عن شيء مما يحدث. هنا بدأت دراما إنسانية شديدة الروعة أعادت القصيدة لذهني على الفور.. هذا قطار أسباني من المفترض أنه فاخر، ونحو ثمانين عامًا تفصلنا عن قصيدة بيرم لكن البشر هم البشر..

أحد العالمين ببواطن الأمور قال في غموض إن (رمسيس مقلوب برضه وفيه مظاهرات). ثم ذلك الشاب ذو الشعر الطويل والكوفية الذي ذكر ألف مرة لألف واحد أنه مخرج، يضرب كفًا بكف ويعلن أن هذا سيعطل عمله الإعلامي المهم. آخر مرة سمعته فيها كان يحكي أنه مخرج لعامل البوفيه.. يقول إنه يجب أن يقدم برنامجًا عن هذا الموضوع.. .

الطالبات اللاتي كن ذاهبات للامتحان في حالة هستيرية يبكين بلا توقف.. أرجوكم لابد من عمل شيء.. اقترحت على واحدة منهن أن يطلبن شرطة النجدة.. هذا هو الحل الوحيد الممكن لأن الموضوع قد يطول.. العالم ببواطن الأمور يؤكد أنه سيستمر حتى العاشرة مساء..

الفتاة ذات الماكياج الصارخ والجينز الضيق والحجاب المزركش المليء بالترتر تنهض من مقعدها في حالة هستيرية:

-"يا خيابي.. لو بابا عرف حتبقى مصيبة.. ده كان يحيقني"

لا أتعب نفسي في فهم سبب غضب أبيها لدرجة الحرق من إضراب عمال البلوكات.. لكن ذلك الرجل المتظاهر بالخطورة ذا النظارة السوداء يدنو ليجلس جوارها ويشرح لها في وقار وحكمة سياسة البلد وما ينبغي أن يكون.. ثم يصل لنظريته المعقدة التي تؤكد أن عمال البلوكات عملاء من الغرب لتدمير الإسلام..

هنا أتذكر بيرم التونسي من جديد:

يا خلق لسه الولد نازل بكا وعياط

والوش غرقان لشوشته في عماص ومخاط

الحلوة قالت لأمه: ياختي ابنك شاط

قالت: عايزني اشتري له ادلعدي كتاكيت

قال الأفندي: هاهع.. ابنك ده طالع ديك

والحلوة قالت: هيء هيء.. والديك مالهش شريك..

البعض بدأ يتسلق عربة القطار نازلا ليبحث عن مواصلة أخرى.. تلك السيدة العجوز الوقور تجلس في مقعدها وتبتسم في استسلام من رضي بالقضاء.. هي لن تذهب لأي مكان وسوف تبقى في القطار حتى يتحرك أو تموت.. نفس ابتسامة قبطان السفينة الغارقة الذي لن يتركها لأنها قدره...

الرجل الغامض يحكي للفتاة قصته عندما أرسلته المخابرات المصرية لفرنسا كي يقتل أحد عملاء الموساد، والفتاة تصغي في رعب ثم تقول له: "رفقاً بالقوارير!"

يمسك بزجاجة ماء ويلوح بها في خطورة أمام عينيها الخائفتين ويقول:

ـ"انت بتقولي كلام مش عارفه معناه.. عارفة يعني ايه قوارير؟.. دي مثلاً قارورة.. فاهمة عاوز أقول إيه؟.. دي قارورة.."

ـ"أيوه قايوية.. لكن بايضُه معناها إيه ؟"

يخلع نظارته ويفرك عينيه مفضلاً ألا يتكلم أكثر.. أمور المخابرات هذه لا يفهمها الجميع. المخرج يؤكد لبائع الشاي أن تجاربه مع (فاتن حمامة) في التصوير محبطة لأن وجهها لا يعكس

النور بما يكفي.. مش كل وش ينفع يتصور يا حبيبي.. دي حاجات نفهمها احنا..

الآن قررت الفتاة أن تثب من القطاي.. أقصد القطار.. ينهض الرجل الغامض ليساعدها على الوثب بيده القزية، ثم يعلن أنه سيرحل معها ليوقف لها مواصلة إلى القاهرة لأننا على بعد ثلاثة كيلومترات من أقرب مدينة.. هنا أتذكر بيرم التونسي:

الحلوة ساوت هدومها يعني أنا نازلة

لفندي بالمثل ساوى البلطو والبدلة

هنا بدأ ركاب القطار الباقون يتغامزون.. فيقول بيرم التونسي:

كان في الجماعة جدع أحمق نطق ف الحال

وقال تمام يا غجر.. معلوم.. تمام.. أمال!

اتقل يا واد.. مش كده.. بزيادة يا ختـي دلال

آه يا غجر يا شلق.. يا دون يا عكاريت!

قال العجوز: يا بنـي خلي الخلق للخالق

قال: انت مالك يا بارد؟. قال حتتخانق ؟

ماهو انت أهه في اللي جنبك منغرز زانق

كان حد قال لك إحم؟. أو حد قال لك كيت ؟

هذا ما حدث حرفيًـا تقريبًـا.. وكنـت أنـا غارقًـا في خـواطري وسط أصـوات الـشجار.. مـن حـق عمـال البلوكـات أن يطـالبوا بوضـع أفضل، ولكن ما ذنـب الزهـرات الـصغيرات المـذعورات اللاتــي وقفـن باكيات يلوحن لأي سيارة متجهـة للقاهرة؟.. ما ذنـب السيدة العجوز الوقور التي لن تستطيع أبدًا النزول من القطار حتى لـو ظـل واقفًـا إلى يوم الدين؟.. كل المواعيد الـتي ضـاعت.. والتـذاكر الـتي أهـدرت. في الوقت ذاته ما ذنب العمال الذين لا يجدون ما يكفي لإطعـام أطفـالهم ومواجـهـة حياة صارت عسيرة علـى الجميـع؟. شـعور محـير فعـلاً.. لابـد للغـضب مـن ضـحايا ولابـد مـن خاسـرين علـى كـل الجبهـات

باستثناء هذا الأخ الغامض خبير القوارير..

لما طال الانتظار ساعتين توكلت على الله ووثبت بلا رشاقة من القطار، وساعدت السيدة الوقور على النزول. وهنا وجدت منظرًا مذهلاً.. عربات الشرطة تصرفت بكفاءة ملحوظة، فسدت الطريق السريع بالعرض بامتداد القطار لتكون هناك مساحة خالية تسمح بعبور مئات من ركاب القطار إلى الطريق السريع، وهناك وقف رجال المرور يوقفون سيارات الميكروباص المتجهة للقاهرة لنستقلها.. السيارات التي اكتشف سائقوها كنزًا ينتظر هناك جوار قضيب القطار.. وسرعان ما كان الميكروباص ينطلق بسرعة مجنونة نحو موقف عبود حيث يجب أن نجد مواصلة أخرى لرمسيس..

الخلاصة التي توصلت لها هي أن الإضراب ليس قرارًا سهلاً، وأن الناس ثرثارون، وأنني لا أجذب الفتيات لأن شكلي مرعب، وأن بيرم التونسي عبقري حقيقي.. ومن جديد تذكرت نهاية القصيدة:

نزلوا الجميع الحسين ونزلت أنا منكاد

نازل لوحدي.. ولا صيدة ولا تزفيت!

القسم الثاني

وفيه حديث عن توحش الإعلام

وتأثير ذلك على عقول الأنام

رجل واحد أمين

عندما سافرت – منذ أعوام – للعمل في المملكة العربية السعودية، كان عملي في بلدة صغيرة اسمها (الدوادمي)، وقبل السفر رحت أسأل عنها، فكانت شهادات المصريين الذين يعرفونها جيدًا كما يلي: " الدوادمي صحراء مترامية.. خذ معك الكثير من الطعام لأنك لن تجد ما تأكله لعدة أشهر.. الماء غير مأمون ويُحفظ في براميل صدئة.. عامة يجب أن تضع أرجل السرير ليلاً في أربعة أوعية مليئة بالماء لتجنب العقارب فهي كثيرة.. . لا تفتح الباب مباشرة لأن العواصف الرملية تقذف بالعقارب خلف الباب، ولأن الذئاب تجيد طرق الأبواب". واحد فقط قال لي إنها بلدة متحضرة وحديثة. ذهبت إلى هناك شاعرًا بما شعر به (روالند امندسن) وهو يستكشف القطب

الجنوبي، متأكدًا أنني لن أرى أسرتي ثانية، فكانت المفاجأة أن أرى بلدة نظيفة جميلة جدًا تذكرك بالمعادي نوعًا، فيها عدة مطاعم ومتنزهات وأكثر من مركز تسوق ومستشفى كبير وأكثر من إنترنت كافيه. كان هذا أول درس أتلقاه عن أن الناس تتكلم ببراعة وإفراط، بالذات في المواضيع التي لا تعرف عنها أي شيء على الإطلاق، و لسوف أموت وأنا أؤمن أن مقولة (من قال لا أدري فقد أفتى) من أروع ما سمعت في حياتي.

كان (ديوجين) يفتش بالمصباح عن رجل واحد أمين.. واضح أنه لم يجده. وها نحن أولاء نبحث عن رجل واحد أمين ينقل لنا الأشياء كما هي أو يعترف بأنه لا يعرف فلا نجده، وهنا تقابلنا مشكلة أخرى هي ازدهار الإعلام بحيث تجد المعلومات الخاطئة أو الزائفة فرصة نادرة للانتشار.

الحقيقة هي أن الإعلام قد توحش وصار كالمحيط الثائر الذي لا يمكن الإمساك به أو حبسه. هذه المقولة سوف تستفز كل من يؤمن بتدفق المعلومات. نحن اليوم نعيش ثورة إعلامية غير مسبوقة، سواء على مستوى الصحف أو الفضائيات التي لا تهمد أبدًا أو طوفان

المعلومات القادم عبر شبكة الإنترنت. دعك من أن كل من يملك مدونة على الإنترنت صارت لديه جريدة خاصة يعلن فيها آراءه.

والنتيجة؟.. نحن بالفعل لم نعد واثقين من أي شيء على الإطلاق. في مقال نشر بالمصري اليوم يوم 5 أكتوبر 2009، يقول الإعلامي الكبير (حمدي قنديل) إن قصة القراصنة الصوماليين كلها أكذوبة.. القراصنة الحقيقيون هم مصريون قاموا بأسر بعض الصيادين الصوماليين الأبرياء. ويقول: "الواقع أن هذا التضليل قد تم عن عمد أو عن غفلة، ضمن خطة غربية للسيطرة على مداخل البحر الأحمر وبحر العرب واحتلال الصومال ذاته إثر انهيار الدولة وتفشي الفوضى وتقدم الحركات الإسلامية المسلحة....... القراصنة إذن ليسوا هؤلاء الذين احتجزوا السفينتين المصريتين خمسة أشهر متواصلة منذ شهر مارس الماضي وعاد بهم بحارتنا مؤخراً، ولكن هم بحارة هاتين السفينتين الأربعون الذين استقبلناهم استقبال الأبطال وحشوا صفحات جرائدنا وساعات إرسال قنواتنا الفضائية بأكاذيب عن مغامرتهم........... فقد أصبح القراصنة المصريون أكثر القراصنة شهرة في مياه الدول الأفريقية، سواء تلك المطلة على بحر

العرب والمحيط الهندى شرق القارة أو المطلة على البحر الأبيض شمالها".

هذا يعني ببساطة أن الزفة التي استقبلنا بها بحارتنا، وكل المانشيتات التي تقول (عملوها الدمايطة) وكل التهاني التي انهالت عليهم صدرت عن أشخاص مخدوعين.

(حمدي قنديل) إعلامي كبير ويعرف ما يتكلم عنه، وهكذا يمكن معرفة الطرف الذي قال ما لا يعلم: الصحف التي هللت لانتصار الصيادين المصريين الجدعان طبعًا.

فلنترك هذا الموضوع إذن ونتكلم عن حرب أكتوبر التي نحتفل بها هذه الأيام.. لقد نشأنا على أنها نصر عظيم حطم أسطورة الجيش الذي لا يقهر، وفتح الباب لاسترداد سيناء، وهذا ما تعلمه جيلنا وانتهى الأمر. لكن الإعلام لن يتركك تعتقد هذا.. عشرات المقالات تؤكد أن خسائرنا أكبر بكثير من خسائر الإسرائيليين، والجيش الثالث كان محاصرًا تحت رحمة الإسرائيليين بالكامل، ولم نسترجع سوى شريط أرض ضيق، وسيناء عادت كاملة لكن لقوات حفظ السلام الدولية ولم تعد لنا. على كل حال هذا جدل طويل معقد قد نقبله

باعتبار أن من حق الناس أن تعرف كل شيء، ولكن لماذا لا تتكون لجنة مدققة تدرس كل شيء وتجري تحقيقًا، ثم تضع شهادتها النهائية بدلاً من أن يؤلف كل واحد في مصر كتابًا عن رأيه في الحرب؟

وماذا عن عبد الناصر؟.. في أحد كتب (شهود العيان) يؤكد المؤلف أن عبد الناصر كان يقول وهو نائم قبل الثورة: "سوف أصير ملك مصر"، فمتى وكيف تمكن الشاهد من دخول غرفة نومه؟.. ويؤكد كذلك: "من المعروف أن عبد الناصر هو من حرق القاهرة". لماذا ومتى صار هذا معروفًا؟ حاولت تخيل عبد الناصر يحمل مشعلاً وجركن كيروسين ويجري في الشوارع فلم أفلح..

أما عن السادات فالكلام عنه كثير.. هناك سادات متسرع ملول لا يدقق في قرارته، شيطاني يشرب الخمر (الفودكا بالذات لأن رائحتها لا تعلق بالفم)، ويشاهد الأفلام الغربية قبل عرضها على الرقابة (غاوي مناظر كذلك)، ويفشي أسرار حرب أكتوبر لكيسنجر بينما القتال دائر، ويسلم كل شيء لبيجين... هذا السادات الذي اصطلح على أنه (سادات هيكل) وربما سادات الشاذلى ومحمد

إبراهيم كامل كذلك، وهناك سادات آخر عبقري شديد التدين، ثعلب سياسي يتنبأ بكل شيء حتى انهيار الاتحاد السوفيتي الذي لم تتوقعه المخابرات المركزية نفسها، وهو الذي استعاد سيناء بينما عجز العرب كلهم عن استعادة ملليمتر واحد من أرضهم. هذا السادات اصطلح على تسميته (سادات موسى صبري) ولعله سادات إبراهيم سعدة كذلك.

(رفعت الجمال) ضربة قوية وجهتها المخابرات المصرية لإسرائيل وهو بطلنا القومي..

(رفعت الجمال) ضربة قوية وجهتها المخابرات الإسرائيلية لمصر..

هيكل واحد ممن يعرفون ما يتكلمون عنه وهو يؤكد في ثقة أن مصر لم يكن لها أي جاسوس ذي أهمية في إسرائيل وقت حرب 1967، وكل ما قيل خيال روائيين، وجمعة الشوان يؤكد أنه كان متزوجًا من سعاد حسني، مما يدفعك للشك في بعض ما يحكيه من قصص..

حتى الشهادة في أمور رآها حشد من الناس لا يمكنك فهم

شيء منها: فتاة العتبة لم تُمس.. فتاة العتبة تم اغتصابها وسط الميدان وفي الزحام دون أن يتدخل أحد. المحاسب المتزوج رب الأسرة الذي قبض عليه وظهر على غلاف أكثر من جريدة مضروبًا ينزف الدم من أنفه وبثيابه الداخلية، أفرجت عنه المحكمة بعد هذا لأنه لم يفعل شيئًا، ولأنها لم تفهم ما حدث بالضبط بسبب تضارب الروايات..

* * *

فنان كاريكاتور خليجي – لن أذكر اسمه لأن هذا ليس موضوعنا – ضُبط متلبسًا بسرقة رسومه من المجلات العالمية.. ليس اقتباسًا وليس تأثرًا بل هو نقل مسطرة، مع فارق شاسع في المعالجة الجرافيكية طبعًا يشي بقلة براعته. قام أحد المدونين المخلصين للحقيقة بوضع رسوم الفنان ملاصقة للمصادر التي سرق منها، مع ذكر التاريخ والمصدر الذي يؤكد من أخذ ممن. إدانة واضحة صارخة لا تحتاج إلى تعليق. هكذا انهمرت الشتائم والاتهامات.. على من؟.. على مكتشف السرقة طبعًا!. فهو مسطول تارة.. وهو شاذ تارة أخرى.. وهو يتعاطى المخدرات.. وهو عبد الغرب.. وهو لفق الرسوم

الغربية بنفسه ليتهم الفنان في شرفه. وأنهى أحدهم الصفحة صارخًا مشجعًا الرسام اللص: "إلى الأمام يا (.....).. لأنك تسير في المقدمة قذفك أنصاف الرجال بالحجارة! ".

مدرسة (الحق على المقتول) مدرسة عربية معروفة، لكنني لم أتوقع أن تصل الأمور لهذا الحد في أمر واضح كالشمس. لقد لجئوا إلى الكثير من الصراخ ليخفوا الحقيقة، والنتيجة أن من يبصر الصفحة يجد مجموعة من الشتائم ضد المدوّن ولا يفهم الموضوع أصلاً. ومثل هذا كثير في برنامج الاتجاه المعاكس الذي يقدم على قناة الجزيرة، حيث ينفجر الطرفان في الصراخ قبل أن تبدأ الحلقة، فلا تسمع حرفًا، وتتطاير الاتهامات في شقتك، بينما المذيع (فيصل القاسم) يقف في الوسط صارخًا: "يا رجل!.. يا زلمة!. سأعطيك المجال"، وتنتهي الحلقة دون أن نعرف شيئًا يتجاوز ما كنا نعرفه قبل بدء الحلقة.

رجل واحد أمين.. سوف يزحف الشيب على رأسك دون أن تلقاه.. لا تنظر لمرآتك فهو ليس هناك.. صدقني.. .

مثال آخر قوي وخطير جدًا هو حملة التشكيك في لقاح إنفلونزا الخنازير قبل أن يعرف صانعه نفسه آثاره الجانبية، إلى

حد أن اللقاح لن يجد من يأخذه بالتأكيد. ومن جديد نـرى علـى قنـاة الجزيرة ضيفًا قيل إنه خبير في الأوبئة ينـصحنا بعـدم أخـذ اللقـاح، وهنا يمارس الإعـلام لعبـة حجـب تفاصيل معينـة.. فنحن مـثلاً لم نعرف أن الضيف طبيب أسنان ولا علاقـة لـه بالأوبئـة، ولـه كتـب مليئـة بـالخزعبلات ونظريـة المـؤامرة.. هكـذا تم حجـب جـزء مـن الحقيقة لتحقيق غاية معينة هي البحث عن أخبار مثيرة مهمـا كـان الثمن النهائي لذلك، وهو عبث خطير لو فكرت في الأمر، لأنه يعـني أن ملايين الناس لن يأخذوا اللقاح.. وهذا قد يعني وفاتهم لو توحش الفيروس أكثر. اليوم وجد العلم اللقـاح لكـن أحـدًا لـن يمسه بـسبب العبث في الإعلام وبسبب ثقافة (الفورووردر) هـذه، والأصـوات عاليـة جدًا بينما صوت منظمة الـصحة العالميـة بطبيعتـه خفيض عقلانـي، وهكذا حسمت المعركة في عالم لا ينتصر فيه إلا الأعلى صوتًا، وما من رجل واحد أمين.

كما قلت، هناك تدفق شديد للمعلومات ونقيضها، وهو تـدفق لا يعرف التعقل ولا يعطي فرصة للتمحيص واتخاذ القرار، والمهم أن الجميـع تقريبًـا يكـذبون.. يكـذبون بوجـه صـلب وأعـصاب بـاردة.

والنتيجة هي أن المرء يزداد جهلاً كلما عرف أكثر. بعض القضايا التي تثيرها الصحف وتحدث خلافات، هي في الحقيقة تصفية خلافات بين رجال أعمال، والعاملون في كواليس الصحافة يعرفون هذا جيدًا.. أما رجل الشارع فيجري وراء عواطفه والأعلى صوتًا..

قد تقول لي إن اللون الأسود أو الأبيض لا وجود لهما، وإن كل الأشياء رمادية، لكن هناك أمورًا لا تقبل الجدل: هل فلان رجل وطني مخلص أم هو عميل ؟...

كنت أتكلم في جلسة خاصة عن أحد الوزراء السابقين الذي نعرف أنه المسئول عن تدمير الزراعة في مصر والمبيدات المسرطنة، وهو من فتح زراعة مصر لإسرائيل تعبث فيها كما تشاء.. هنا سمعني أحد أساتذة الزراعة الكبار — وهو رجل محترم جدًا واسع العلم يمقت إسرائيل كالجحيم – فقال لي: "لا تصدق الصحف.. الآن لا أحد يسمعنا، وأنت لن تنفعني أو تضرني، لهذا أقول شهادتي لله.. أنت بعيد عن الصورة تمامًا ولست مختصًا، ولا تعرف ما فعله هذا الرجل للزراعة في مصر.. لو كان عندنا اثنان منه لصرنا من أهم مصدري القمح في العالم. لقد كان مدمنًا للعمل شديد النشاط،

والحقيقة أنه أُبعد لأنه كان أنجح من اللازم!"

-"يا سلام ؟!!... وماذا عما كتبته عنه الصحيفة الفلانية والجريدة العلانية؟ وكل هذه القضايا ضده ؟"

-"تسوية حسابات لا أكثر.. "

إديني عقلك! !.. أحيانًا يؤدي سماع الرأي والرأي الآخر إلى أن تقترب من الجنون..

أحد الطرفين كاذب أو مخدوع.. لكن أيهما؟.. بالطبع أميل إلى أن ما نعرفه من صحف المعارضة هو الحقيقة، لكن هل يمكنك تجاهل كلام يقوله أستاذ زراعة شريف واسع العلم والخبرة ؟.

ثمة مشكلة أخرى أعتقد أنها حقيقية، هي أن البخار يصدر من كل مكان.. مئات الثقوب في مجتمعنا يخرج منها البخار الغاضب، والكل ينفث عن كبته في الصحف.. على شبكة الإنترنت.. في المدونات.. أعتقد أن هذا أضعف قوة عزم البخار فلم يعد قادرًا على رفع الغطاء. هذه الضغوط من قبل هزت الأرض في 18 و19 يناير لأنها كانت مركزة، لكن البخار اليوم يخرج بانتظام وشكل منهجي فلم يعد قادرًا على عمل شيء على الإطلاق، وكما ترى نحن نتكلم بغضب

وصراحة منذ عام 1990 ولم يتغير أو يحدث شيء.. ومن الواضح أننا يمكن أن نتكلم ثلاثين عامًا أخرى.

لا يمكن أن يقيد أحد الإعلام من جديد، حتى لو أردنا هذا.. كل التجارب أثبتت أن هذا مستحيل في عصر الفضائيات والإنترنت، وأنت تعرف اختراع البروكسي وسواه..

والحل؟.. هل ستبقى هذه الفوضى للأبد ؟

ربما كان غيري أقدر على إيجاد الحلول، لكنني أرى أنه يجب أن يبدأ المرء بنفسه أولاً.. يجب أن يتقي من ينقل الخبر الله فيمن يسمعونه، وأن يبعد أهواءه الشخصية وميوله الأيديولوجية وينقل ما حدث بالضبط.. ما رآه بالضبط وليس ما يتصور أنه حدث أو ما يتصور انه كان يجب أن يحدث..

القصة التي تؤثر في كثيراً هي قصة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم مات ابنه (ابراهيم) وحدث خسوف للشمس.. قال المسلمون: لقد خسفت الشمس حزناً على (إبراهيم).. عندها كان غضبه صلى الله عليه وسلم شديداً مخيفاً وقال لهم: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته". هذا

درس في الموضـوعية والدقـة.. مـا حـدث حـدث ومـا لم يحـدث لم يحدث.. فقط..

العدل.. العدل والحيادية، حيث لا يجرمنكم شنآن قوم علـى ألا تعدلوا.. يجب تحري الدقة.. ثقافة التمرير يجـب أن تكـون لهـا فرامل.. يجـب أن يقـرأ المـرء الرسـالة بعـين ناقـدة قبـل أن يمررهـا لسواه. أعتقد أن معظم مستعملي الإنترنت يمررون ما يصلهم قبـل أن يروا محتواه.

نفس الروح الناقدة المتشككة يجب أن يتحلـى بهـا مـن يتـابع الفضائيات. ليس كل ما يقال صحيحًا. أمـا عـن الإعلامـيين أنفسهـم، فعليهم ألا يفرحوا باهتمام الجماهير المؤقت مع كـل مقـال أو خـبر.. إن الفوضـى هـي نهايـة هـذا الطريـق، ويـوم تجتـاح الجميـع سـوف يعضون على أناملهم ويقولون: ليت كان بيننا رجل واحد أمين.

المجد للكراهية

من الأفضل أن يصمت المرء هذه المرة بعد ما وصلت الأمور إلى هذا الحد؛ فلو تكلمت قائلاً أي شيء لقلت الشيء الخطأ.. إما أن تلهب النفوس وتزيد النار اشتعالاً وتسكب عليها المزيد من البنزين، أو تدعو للحكمة والتعقل وتذكر الناس بالقومية العربية، وهي دعوة تبدو مائعة رقيعة جدًا أمام كل العنف الذي تعامل به الجزائريون مع انتصارهم.

كل الناس يتكلمون وقد فُتحت طاقة القدر لوسائل الإعلام التي وجدت مادة تكفي لملء الصفحات وساعات الإرسال لمدة شهر على الأقل، فلن أضيف شيئًا جديدًا إلى كل ما قيل ويقال، لكن لا بأس من أن يوجه المرء بعض الاتهامات.

الاتهام الأول موجه بالطبع للإعلام الذي سقط سقوطًا ذريعًا في هذا الاختبار منذ اقتربت المباراة. قمة انعدام المسئولية أظهرتها وسائل الإعلام المصرية والجزائرية على حد سواء، وهكذا تم شحن الجماهير على الطرفين لحرب حقيقية لا خيارات فيها سوى النصر أو الشهادة، مع ولع سادي مجنون بنقل كل حرف.. لو أطلق مشجع جزائري أحمق سبة في مصر، سرعان ما تسوّد مقالة كاملة عن هذه السبة، ثم يجلس كاتب المقال ويسترخي في مقعده ممسكًا بقدح النسكافيه، ويتابع في استمتاع ردود القراء على الإنترنت.. القراء الذين احمرت عيونهم وصفّر الدم في آذانهم فلم يعودوا يعون ما يكتبون. شتائم مهينة جدًا انهالت على رأس مصر ورأس الجزائر في الفترة الأخيرة، فنحن عملاء الصهاينة الذين نتصرف بحقارة، وهم البربر أبناء الفرنسيين الذين لا يعرفون العربية ولا الإسلام ولا آباءهم الحقيقيين، حتى إنني فعلاً لا أعرف بأية معجزة يمكن أن تصفو العلاقات مرة أخرى.

هذه عينة مما يكتب عندنا: " استهزأت جريدة أخبار اليوم الجزائرية بالدعوات الصحفية المصرية بضرورة التهدئة، وقالت: لم

تتردد بعض الصحف المصرية أمس، في دعوة النظام المصرى المتحالف مع الصهاينة جهاراً نهاراً إلى (تقبيل الحذاء الجزائرى). عدد من المواقع الجزائرية على شبكة الإنترنت يبث مقطع فيديو لمئات من الجماهير الجزائرية الذين صنعوا نعشًا من الخشب، ووضعوا عليه علم مصر ثم حملوه على سيارة نصف نقل وكتبوا على أحد أوجهه كلمة (الإعلام المصري) ومن الجانب الآخر (سمير زاهر)، فضلاً عن ذلك فقد طافت الجماهير الجزائرية بهذا العلم في شوارع العاصمة الجزائرية فيما يشبه جنازة للإعلام المصري.".

بأمانة. هل نشر هذا الخبر مفيد لواحد آخر غير كاتبه؟.. هل ازداد القارئ حكمة أو علمًا؟.. فقط ازداد حقدًا وسوف يبحث عن أي جزائري ليفتح رأسه. عشنا في هذا الجو عدة أشهر حتى وقعت الواقعة، والآن حقق الإعلام في البلدين هدفه الأسمى واشتعلت النفوس، فهل هم راضون؟.. لديكم مادة ممتازة لبيع الصحف وشغل الفضائيات لمدة طويلة.. هنيئًا لكم.. إنها ظاهرة جديدة فعلاً هي أن الإعلام لا يتابع ما يحدث، بل يخلق الظروف المناسبة لحدوثه ثم يتكلم عنه عندما يحدث. كالصحفي الذي يقتل الناس ليجد أخبارًا

يملأ بها صفحة الحوادث.

نقطة أخرى مهمة هي أن الأخبار التي ترشح ليست دقيقة وليست كاملة، فلماذا تصر الفيفا على أن اللاعبين الجزائريين هوجموا فعلاً في القاهرة، ولماذا تصر على فرض عقوبات على مصر وليس الجزائر؟.. هل الفيفا متواطئة لهذا الحد المهين، أم أن بعض الجماهير غير المسئولة فعلت ذلك فعلاً؟.. لقد رأينا الزجاج خارج الحافلة لكن من أين جاء الجزائريون بالدم على رءوسهم؟.. هل هو ميركيروكروم كما يزعم البعض في فيس بوك؟.. هل جرحوا أنفسهم؟.. تخيل أن تقوم أنت بفتح رأس عصام الحضري ومتعب وأبي تريكة لمجرد أن تلفق تهمة للجماهير الجزائرية. صعب أن تصدق ذلك. كما أنه من الصعب أن تصدق وجود مؤامرة تحالف فيها الفيفا والجزائر وقناة الجزيرة وأنت الطرف الوحيد الصادق، ولو صدقنا هذا فأين ذهب الأخوة في فيس بوك الذين كانوا يدعون كل بلطجية مصر وسفاحيها لتكريم الفريق الجزائري وإضافة 11 شهيدًا إلى المليون؟.. لو كان الجمهور المصري بريئًا فأنت قد جعلته متهمًا بكل ما فعلته قبل المباراة.

الغريب أننا كنا نتندر دومًا على الحرب التي نشبت عام 1969 بين الهندوراس والسلفادور بسبب تصفيات قارة أمريكا الجنوبية المؤهلة لكأس العالم. كان المرء لا يصدق (هيافة) هؤلاء القوم عندما خسرت هندوراس أمام السلفادور بعد انتصارها، فقام الرئيس الهندوراسي بترحيل المزارعين السلفادوريين من بلاده. وتطورت الأمور بغارة قامت بها طائرات هندوراس على مواقع لجيش السلفادور.. ردت السلفادور بغزو هندوراس.. ودارت حرب قصيرة كلفت البلدين آلاف الأرواح، برغم الكلام عن أخوّة الأمريكيين الجنوبيين والتاريخ والكفاح المشتركين!... مضحك.. أليس كذلك ؟... تذكر كذلك أن البلدين كانت بينهما مشكلة حدود قبل المباراة. نحن فعلنا الشيء ذاته تقريبًا مع فارق أنه لا يوجد أي توتر سابق بين البلدين.

كل الكلام عن الأخوة والوحدة العربية يسقط مع أول اختبار أو خلاف. وها هي ذي مهزلة استدعاء السفراء تبدأ.. استدعاء للسفير الجزائري.. استدعاء للسفير المصري في الجزائر والسودان.. مصر مختلفة مع الجزائر.. السودان متضايقة من مصر لأنها تتهم

الأمن السوداني بالتراخي.. ثم تدخل غزة على الخط؛ فهي ضد الجزائريين لأنهم سخروا من أهل غزة الذين خرجوا يهتفون لمصر.. هكذا تدب الفرقة بين أربع دول عربية..

طريقة (عركات السلخانة) هذه لن تفضي إلى أي شيء. أنت لن تضرب الشعب الجزائري كله فلنكف عن الجعجعة والتهديدات إذن، ولكن يجب أن يعود حقنا عن طريق التعقل.. هناك عريضة تخاطب الفيفا تدور في شبكة الإنترنت للتوقيع عليها، وبرغم أسلوبها الإنجليزي الركيك فإنها تنفيس عن الغضب لا بأس به. هناك قنوات دبلوماسية كثيرة يجب أن تجرب كلها لإعادة حقنا الذي يوشك على الضياع، مع استخدام حوادث حقيقية موثقة وليس هذا الهراء الذي ينشر في الصحف. مصر بلد مهم قادر على أن يضغط على الفيفا. إن جزءًا كبيرًا مما يحدث لنا يعود لأن وزارة الخارجية لا تؤدي عملها كما يجب أو لا تؤديه على الإطلاق. هل أنا متجن؟.. الكاتب أسامة غريب كان في السلك الدبلوماسي لفترة طويلة، وقد كتب مقالاً قاسيًا في كتابه فائق الإمتاع (مصر ليست أمي..) بمناسبة حادث سرقة مخزن الخمور الخاص بسياسي شهير، والذي يحوي

المشروبات التي يقدمها للضيوف الأجانب: "في حديث تلفزيوني لوزير الخارجية السابق أحمد ماهر قال إن العمل الدبلوماسي ليس نزهة ولم يعد حفلات وبروتوكول وكوكتيلات......إنني أشعر بالأسف عندما أسمع هذا الكلام يتردد كأنه حقيقة، لأن البعثات الدبلوماسية المصرية في أرجاء المعمورة لا تفعل سوى حضور حفلات الشراب ومآدب الطعام، وهذا لا يقتصر على السفارات والقنصليات بل يمتد ليشمل الجيوش الجرارة من الموظفين في البعثات المصرية في 188 دولة......... آلاف الموظفين يتقاضون مئات ملايين الدولارات من لحم الوطن العاري لا يفعلون سوى ارتياد صالات المزادات وتنمية مواردهم.......لقد وصلت الرسالة كاملة للدبلوماسيين في الخارج.. لا تصدقوا أنكم دبلوماسيون بجد.. السياسة الخارجية لمصر لا علاقة لوزارة الخارجية بها! . كل المطلوب منكم أن تأكلوا وتشربوا في حفلات السمر وتدعوا للسلطان بالنصر، والقيام بالتشهيلات ووضع خبراتكم في الشوبنج تحت الطلب.. .. إن غياب الدبلوماسية المصرية هو أحد أهم الأسباب لاختفاء الدور المصري وهوان مصر على الجميع. وليسمح لنا السيد أحمد ماهر بأن نختلف معه فنحن لا نرى العمل

الدبلوماسي سوى تشريفات وبروتوكولات وثرثرة وشراب ومرح".

هذا كلام شاهد من أهلها وليس كلامي..

ما حدث بروفة مخيفة لما يمكن أن يحدث عندما تجن الجماهير، فلا يصغي أحد لصوت العقل أو صوت علماء الدين مثل القرضاوي، ويصغون فقط لشهوة الدم ونداء الثأر بينما يتحول المطالبون بالتهدئة إلى جبناء وكلاب. هذه بروفة للطريقة التي يمكن أن تحدث بها حرب أهلية.. الحقيقة أننا – العرب – شعب متعصب ضيق الأفق، والإسلام لم يزل كل ما في نفوسنا من بقايا الجاهلية بعد..

عن سوبرمان الجديد

بسبب ولعي بالسينما أتابع الأفلام الغربية باهتمام شديد، وإن كان هذا الاهتمام يقتصر غالبًا على روائع الستينات والسبعينات التي سمعت عنها ولم أرها لأن سني لم تكن تسمح بهذا في ذلك الوقت، والتي تقدم غالبًا على قناة TCM ، ولهذا أندهش عندما أتابع الأفلام الغربية الحديثة جدًا بسبب نغمات تتكرر بإلحاح مزعج وبلا توقف.. هناك نغمة تقدير واضحة للزنجي.. هذا شيء جميل فعلاً، ويناقض ما عرفته في صباي من نوازع عنصرية لا تخفى لدى السينما الأمريكية.. ويبدو أن هذه النغمة قد بلغت ذروتها على أرض الواقع بانتخاب أول رئيس أسود للولايات المتحدة.. لو كنت قد رأيت دور (مورجان فريمان) في فيلم (بروس كلي القدرة) لفهمت إلى أي مدى يمكن أن يبلغ تقديس الزنجي، وأعتذر عن التفسير أكثر..

النغمة الثانية هي نغمة تقديس اليهودي، وهي نغمة قديمة جدًا ومعروفة.. لا جديد فيها لو تذكرنا أن أول فيلم أمريكي ناطق على الإطلاق كان هو فيلم (مغني الجاز) الذي يحتوي على صلاة يهودية كاملة ويحكي عن معاناة أسرة يهودية للوصول للمجد.. من يعرف السينما الأمريكية جيدًا يدرك أن المسيحي كيان نادر في هذه الأفلام، فبطل الفيلم العبقري اليهودي (ديفيد) أو (روبين) هو الأساس.. ولابد من مشهد بالطاقية في المعبد اليهودي حتى لا تنسى. وغالبًا ما يتم خلط مفهوم اليهودي بمفهوم الإسرائيلي بخبث شديد بحيث يصير من يمقت إسرائيل معاديًا للسامية. وفي حوار قرأته مع الثنائي اليهودي الأخوين (كوين) – وهما علامة معاصرة من علامات السينما الأمريكية – يقول أحدهما إن ما يجذبه لكتابة سيناريو هو شيء واحد فقط: هل هذا السيناريو مفيد لإسرائيل أم لا..

النغمة الثالثة التي لن أقبلها ولو بعد ألف عام هي نغمة تقديس الشاذ جنسيًا. هذا شخص حساس يعاني الاضطهاد وسوء فهم المجتمع، وكل شيء قد يجرح مشاعره.. لنكن متحضرين ونحترم رغبته هذه.. هذه نغمة لم تكن موجودة منذ عشرين عامًا لكنها اليوم

ملحة بشدة، وتعرضها السينما الأمريكية بكثير من الفهم والفرحة وربما الفخر!

هكذا تجد أن السوبرمان الجديد الذي تعدنا به السينما الأمريكية هو اليهودي الزنجي الشاذ!.. وقد بحثت – على سبيل التسلية – عن هذا الشخص على شبكة الإنترنت فوجدت موقعًا مخصصًا لليهود السود الشواذ يتكلمون فيه بتعال وغطرسة باعتبارهم الصفوة! وفي فيلم (أفضل ما تصل له الأمور) يلعب جاك نيكلسون دور شخص عنصري مريض لا يُطاق، يضطر للتعامل مع الزنوج واليهود والأسوأ مع جاره الشاذ.. يكتشف أن جاره إنسان حساس رقيق جدًا وشفاف يوشك على التحليق بجناحين.. تكون نتيجة هذه التجربة أن نيكلسون يغتسل بالكامل من قذارته السابقة ويسمو!

لا أحد يطالب بقطع رأس الشواذ أو سجنهم ولكن أطالب بعلاجهم أولاً، وبعدم اعتبارهم النموذج الأسمى للجنس البشري كما يحاولون إقناعنا، وهي صورة عجيبة للسوبرمان لابد أن الخواجة نيتشه كان سيصاب بالفالج لو سمع عنها!

الشذوذ الجنسي مرض نفسي على عيني وراسي.. مرض

يحتاج إلى علاج كالدرن بالضبط، لكن الأخوة الغربيين في أمريكا وأوروبا يصرون على أن الدرن ليس مرضًا.. إنه طريقة حياة!.. .لا تتضايقوا من هذا البائس عندما يسعل.. اتركوه يبصق دمًا.. أتركوه يتنفس في وجوهكم فأنتم متحضرون ولستم عنصريين.. هذا حق طبيعي ورفضه من الفظاظة بمكان.. الأدهى أن يحاولوا إقناعك أن مريض الدرن أفضل منك وأسمى.. .

هناك تيمة تتكرر في الأفلام الأمريكية ورأيتها مثلاً في فيلم (كابوت) و(أن تكون جون مالكوفيتش) و(كنيزي)، هي تيمة أن البطل / البطلة يعاني التوتر والاضطراب النفسي والاكتئاب ثم يصل للسلام مع نفسه ويتصالح معها عندما يعترف لها أنه شاذ. وفي فيلم مصري شهير يصل البطل للسلام مع نفسه وهو يشاهد حفلاً لأم كلثوم تغني فيه (قد ايه من عمري قبلك راح وعدى يا حبيبي) فتدمع عيناه ويكتشف أنه شاذ.. ويقرر أن يستكمل حياته بهذه الطريقة!

عندما يكتب أحدهم تعليقًا ما في الإنترنت أو يبدي شيئًا من السخرية، يهب الجميع صارخين: على رسلك.. هذا قد يجرح نفسية المثليين!. ويجد صاحب التعليق نفسه في موقع المدافع عن

نفسه الذي يؤكد أن نيته كانت صافية والله العظيم.. من أنا كي أجسر على إيذاء نفسية هؤلاء القوم مرهفي الحس؟

أحيانًا يثير الغربيون جنوني.. إن دودة (أنكوسيركا فولفويولس) التي سببت عمى الأنهار في قطاعات كاملة من أفريقيا توشك اليوم على الانقراض؛ بسبب سياسة منظمة الصحة العالمية الناجحة والرجل العظيم (إبراهيم مالك سامبا). هنا تفاجأ بمن يطالب بالتعقل والتوقف باعتبار هذه الدودة من الأنواع المهددة بالانقراض Endangered species!.. قرأت مقالاً عن هذا الموضوع كاد يصيبني بالشلل.. ما هذه الرقة ؟ هل تحول الجميع إلى نسخ من (غاندي) بينما ظللت أنا وغدًا ؟

رهاني هنا هو أن هذا التسامح والتقديس غير المبررين ينشئان المزيد من الشواذ الجدد.. الطبيعة تقلد الفنان وهناك كثيرون لم يكونوا ليصيروا كذلك لولا هذا التسامح الإعلامي الأسطوري. بينما من المفيد للمجتمع فعلاً أن يظل اسم الخطأ هو (الخطأ).. المؤمن العاصي له وضع خاص أفضل بكثير من وضع الكافر. تقول لهم إنه سيأتي يوم يبيحون فيه السرقة باعتبارها مجرد خلل نفسي،

فيقولون لك: السرقة فيها مساس بممتلكات الغير وحريتهم بينما الشذوذ لا يفعل ذلك!

كل واحد من الناس له أركان روحه المظلمة، لكن من الخير لهذه الأركان المظلمة أن تظل حيث هي.. وإذا بليتم فاستتروا.. ليس من الواجب أن تصير الانحرافات شيئًا معتادًا وحقًا مكتسبًا من يرفضه عنصري ووغد ذو ميول نازية.. إن المجتمع الغربي هو من سمح للعقدة أن تبلغ أقصى مداها وإلا لعاملها كمرض وعالجها.

والنتيجة هي أن ترى في كل يوم صورة لمظاهرة في ميدان عام بالغرب، يقف فيها حلوف مشعر عاري الصدر يضع مساحيق أنثوية كاملة، ويحتضن حلوفًا مشعرًا آخر في حنان. هذان عاشقان.. لماذا تضايقونهما يا متوحشون؟.. وتقرأ عن مئات الأسر الغربية التي تتكون من أبوين من نفس الجنس..

كالعادة تلح هذه المفاهيم كقطرة الماء على عقولنا المصرية.. قطرة.. قطرة.. قطرة.. في النهاية تتكون الفجوة. يمكنك أن ترى كيف قدم الشذوذ الجنسي على استحياء في فيلمي (حمام الملاطيلي) و(الصعود إلى الهاوية) برغم صراحة الفيلمين الصادمة عامة، واليوم

صار الشاذ جنسيًا موجودًا في معظم الأعمال الفنية المصرية، وعما قريب سوف يصير وجوده عاديًا وربما مطلوبًا..

* * *

يبدو أن الثقافة الغربية تفرغت لتكريس فكرة أن سوبرمان الجديد هو اليهودي الزنجي الشاذ. ورهاني الذي لا أملك دليلاً علميًا يؤيده هو أن هذا الاتجاه الإعلامي يضيف للوجود المزيد من الشواذ (فهو لن يضيف زنوجًا ولا يهودًا بالطبع!).

تخيل أن (جيمي) يهوى العبث في أنفه.. هذه عادة قذرة، وهو يحاول إخفاءها والتخلي عنها.. ثم يجد أن الإعلام كله يؤكد أن العبث في الأنف شيء طبيعي وحق للبشر، ومن يعترض عليه عنصري، ويكتشف أن هناك جمعيات كاملة ومظاهرات تدعو لحرية العبث في الأنف.. هل يتخلى (جيمي) عن عادته؟.. بالطبع لا.. سيدس إصبعه في أنفه في كل مكان والويل لك لو اعترضت.. بينما كان من الممكن أن ينجح بمعونة بسيطة في التخلي عن هذه العادة.

هكذا يعود الغربيون لمراجعة كل شيء، وبالتالي لم يعد هناك شيء بريء على الإطلاق. هم لا يبحثون عن هذه العلاقات من منطق

الرقابة، بل من منطق أن هذا موجود منذ زمن سحيق ونحن كنا أغبياء لا نفهم.. قرأت مقالاً عن شيرلوك هولمز وصديقه العتيد د. واطسن.. يرى صاحب المقال إن واطسن كان امرأة على الأرجح، أو هو رجل على علاقة بهولمز.. لا يوجد لدى الغربيين اليوم تفسير لصداقة حميمة بين رجلين سوى هذا. لا يوجد شيء بريء لكن هناك افتراض سوء نية رهيب.

هناك مواقع إنترنت تحلل العلاقة بين المحاربة (زينا) وصديقتها.. من جديد هناك شكوك في تلك الصداقة. هل كان العجوز البخيل الذي يستضيف (أوليفر تويست) مولعًا بالأطفال pedophile؟.. حتى (دان بويل) مخرج فيلم (مليونير العشوائيات) قيل إنه يحمل ميلاً غير طبيعي نحو الأطفال.. والدليل؟.. أنه قدم فيلمًا جميلاً عنهم! !

كل شيء مريب.. كل شيء غير مريح.. في الوقت ذاته هم لا يفتشون في الضمائر من أجل تدعيم القيم المحافظة مثلاً، بل ليؤكدوا أن (العملية بايظة) منذ عشرات السنين.. لقد كانت هذه الأمور موجودة دائمًا ونحن نتجاهلها بضيق أفق! !

هل يمكنك أن تجد شيئًا مريبًا في قصص (باتمان) التي ابتكرها (بوب كين)؟.. هناك عالم نفسي مجنون اسمه (فيرتام) رأى أن القصص غير أخلاقية تمامًا وكتب عام 1954 كتابًا اسمه (غواية الأبرياء)، وفي هذا الكتاب يلاحظ أن عالم (باتمان) رجولي تمامًا.. . هو والفتى (روبين) فقط.. أليس هذا دليلاً كافيًا على كل شيء؟.. هكذا اضطر مؤلف (باتمان) اضطرارًا إلى خلق شخصية الفتاة الوطواط والمرأة القطة وجاء بعمة (بروس واين) من بلدهم لتقيم معه في قصره!... هذه شخصيات اخترعت اختراعًا لدفع التهمة!!

في ذلك العصر كانت تهمة.. ربما يصنعون تمثالاً لبوب كين اليوم، وكان سيسعى سعيًا لتأكيد التهمة لا نفيها!

(ملحوظة خارج السياق: القصص المصورة التي اعتمد عليها فيرتام في كتابه لإثبات أنها مفسدة للنشء، تباع اليوم بسعر الذهب!).

شاهدت حلقة عن مفهوم الأسرة في برنامج (هراء) – الترجمة المهذبة للعنوان – الذي يقدمه شيطانان ظريفان سليطا اللسان هما (بن) و(تلر). البرنامج قائم على هدم معظم الخرافات التي صارت

عادة لدينا، ومنها الطب البديل ومخاطر البيئة.. الخ. في تلك الحلقة يضيف البرنامج لقائمة الخرافات خرافة جديدة هي الأسرة!!

البرنامج يلتقي بعالمة نفسية مخبولة تؤكد له أن مفهوم الأسرة يتطور مع الزمن.. لم يعد مفهوم الأب والأم والأطفال الذين يعيشون في بيت واحد هو المعنى الصحيح للأسرة.. نكتشف الأرقام التالية:

طفل من كل 25 طفلاً أمريكيًا ليس له أبوان معروفان على الإطلاق!

طفل من كل 3 أطفال يعيش مع أبوين غير متزوجين!

طفل من كل طفلين يعيش في بيت مع والد واحد فقط.

عشرة ملايين طفل يعيشون في بيت مكون من أبوين شاذين (يعني الطفل يعيش مع أب وأب أو أم وأم!).

يلتقي البرنامج مع مفكر متحفظ يدعو للأسرة التقليدية التي خلقها الله : أب يسعى للرزق وأم تعنى بالأطفال والبيت.. يوسعه البرنامج سخرية، باعتبار هذه الأسرة هي بالضبط ما كان يفعله رجل الكهف. ثم يقول البرنامج إن المدافع الرئيس عن فكرة الأسرة

هم السياسيون الجائعون إلى أصوات الناخبين، ويظهر صورة لجورج بوش.. هكذا صارت الأسرة التقليدية تعني جورج بوش بأذنيه الكبيرتين وعينيه الغبيتين.. قضية خاسرة تمامًا.. ربط أية قضية ببوش معناه أنها خسرت..

ويرينا بيتًا من عشرة ملايين بيت تعيش فيه أمّان تربيان طفلين.. لا يوجد أب.. أما عن كيفية رزقهما بالطفلين، فقصة معقدة تقوم على الحصول على الأمشاج من شقيق واحدة منهما!... كيف يكون الطفل ابنهما إذن؟.. ما تفعلانه في الواقع هو أن واحدة تربي ابن أخيها!.. إنها عمته يا مخابيل وليست أباه أو أمه ...

لكن البرنامج يحاول إقناعنا أنها أسرة مستقرة، تطهو للأولاد وتعلمهم الرسم وتقرأ لهم القصص. ويلتقي بالعالمة النفسية التي تؤكد أن ما يمكن أن يؤدي لخلل نفسية الطفل ليس نوع الأبوين، بل الفقر والبطالة.. يعني الاقتصاد هو المقياس الوحيد لتربية الأطفال..

هناك أمثلة أخرى يشيب لها شعر رأسك، لهذا لن أقدمها لأنني صدمتك بما يكفي اليوم.

النتيجة ؟... فعلاً لا أفهم لماذا لا تنهار تلك المجتمعات حتى هذه اللحظة؟.. ربما كانت عملية النخر تحتاج إلى وقت أطول مما تصورت، أو أن انهيار المجتمعات يعتمد على عوامل اقتصادية أكثر منها أخلاقية.. أو لأن المجتمع الغربي يملك قدرة فائقة على تصحيح المسار بسبب حيويته الديمقراطية..

هم أحرار فيما يعتقدون لكني بالفعل أخشى تسرب هذه الثقافة إلينا.. المشكلة أن خرطوم الثقافة الذي يتدفق من عالمهم لعالمنا فيه مرشحات ضيقة تسمح بمرور هذه السخافات، بينما تمنع مرور الأشياء المهمة فعلاً مثل ميكانيكا الكم وقيم العمل والدقة العلمية.. الخ..

هذه الثقافة تتسرب لنا.. لا تزعم أن هذا ليس صحيحًا لو سمحت، ويكفي أن تبحث في بعض المنتديات والصفحات السرية على النت، لتجد أن هناك من يرفع صوته خافتًا معتبرًا نفسه أقلية مظلومة في بلد متوحش متعصب.. ولسوف تتساقط قطرات أكثر في الأعوام القادمة، ولسوف ترسم خطًا على الصخر بلا شك. ومن جديد أكرر: أنا لا أطالب بقطع الرءوس والسجن.. أطالب بالطبيب النفسي لا أكثر ولا أقل.

الطريف في فنون التخويف

تأخر الخطاب كثيرًا لكنني كنت أدرك يقينًا أنه قادم، ومع الوقت بدأت أقلق.. هناك خلل في بريدي أو في شخصي بالتأكيد.. ربما أنا لا أستحق أن ينذروني ؟

ثم جاء الخطاب الذي انتظرته طويلاً... الحمد لله.. الدنيا ما زالت بخير..

خبيرة غذائية تحذرنا من استعمال المكرونة الآسيوية الدقيقة المسماة (إندومي)، التي يدخل في تكوينها ملح صيني يدعى (إجني موتو)، وهو يسبب تلفاً في خلايا المخ ويسبب سرطان الدماغ. إن الإندومي يحتوي مادة E621 التي تسبب تسمم المخ وتسبب تراجع الذاكرة وضعفها، وتدهور القدرات العقلية وفقدان القدرة على التركيز

ومعالجة الأمور الحسابية أو الرياضية المتوسطة، ثم تـؤدى إلى غبـاء فعلي بدون مبالغة. كذلك تؤدي الإندومي إلى الإصابة بالشلل الرعـاش والزايمر والصداع المزمن، ومع الاستمرار في تناولها تـؤدى للسرطانات مثل سرطان الثدي وارتفاع الكولسترول وضغط الـدم والأزمـات القلبيـة الحـادة وغـير ذلـك الكـثير.... ونحـن – والكـلام لخـبيرة التغذيـة – نقدمها ونجعلها الوجبة الرئيسية للعشاء لفلـذات أكبادنـا ونـستغرب عندما نراهم لا ينامون، ونراهم في المنزل يجـرون ويـصرخون ويقلبـون البيت، وتظهر منـهم مشاغبات ليس لـها حد، ونقول هذا جيل اليـوم.. أما حان الوقت لنأخذ موقفا من هذه المنتجات والتأكـد مـن مكوناتهـا، والبحث عن مضارها ومنافعها قبل استعمالها ؟.

وهكذا أضيف عنصر جديد إلى قائمة الانذارات اليوميـة الـتي سترسل بنا إلى معهد الأورام ثم القبر. كلنا ذاهبون للقبر قطعًا، لكـن لا يحـب أحـدنا أن يـسبق ذلـك ترانزيـت في معهـد الأورام أو مركـز الكلى أو معهد الكبد لا سمح الله. على كـل حـال يـسهل تـصديق هـذا الخطاب جدًا لأن كل أب يعتبر أبناءه أغبياء وغير طبيعيين.. ما هـو السبب؟.. لا يمكن أن يكون السبب وراثيًـا لأنـه – الأب – عبقـري..

إذن المشكلة فيما يأكله هؤلاء الأوغاد الصغار. هذا الخطاب بالذات قوي التأثير جدًا لدرجة أنه أدى لصدور فتوى عراقية تقضي بتحريم أكل الإندومي، ولا لوم على صاحب الفتوى طبعًا لأنه استند إلى كلام العلماء الذي يقضي بوجود ضرر أكيد.

هذه القائمة الطويلة من الأمراض التي تسببها الإندومي – كأنك تتعامل مع مخلفات الشيطان – تثير الريبة فعلاً. عندما يشكو لي المريض من رأسه وقلبه ومعدته وقدميه وتنفسه فإنني أرجح أن المرض الحقيقي موجود في عقله.

مادة مونو صوديوم جلوتامات أو MSG هي نفسها E621، ونحن نعرف أنها تستخدم كمكسب طعم في كل شيء تقريبًا. معظم الدراسات التي أجريت عليها تقول إنها مأمونة بالجرعات العادية... لو أخذت أي شيء بجرعات زائدة حتى لو كان (فيتامين) فهو مضر بالتأكيد، وبالطبع هناك أشخاص قد يكونون مصابين بحساسية للجلوتامات، أو لا يجب أن ينالوا جرعات إضافية من الصوديوم. هم يعرفون هذا، لهذا اشترطت الحكومات كتابة أن المنتج يحتوي هذه المادة. الدراسات كثيرة جدًا لأن هذه المادة مفضلة

للذعر.. ومن حين لآخر يعود الكلام عن أنها خطرة أو مسرطنة.. لكن العالم الأمريكي (هارولد مكجي) يؤكد في كتابه (عن الطعام والطبخ: العلم وتقاليد المطبخ - 2004) خلاصة هذه الدراسات التي تؤكد أن هذه المادة بلا أي خطر. نفس الشيء أكدته الـ FDA. الصينيون أجروا دراسة مدققة واسعة فوجدوا أن الخطر الوحيد لهذه المادة زيادة الوزن.

على كل حال تبين أن هذا التهديد الزائف يدور عبر الإنترنت منذ عام 2007، وهناك تهديد زائف آخر يعود لعام 2000 عن أن الأكواب الرغوية التي تقدم فيها (النودلز) تسبب تسممًا بالمادة الشمعية المغطية للمكرونة. كلام فارغ هو الآخر.

تهديد آخر من هذا الطراز العجيب يتعلق بأكل الجمبري.. لو أكلت جمبري ثم أكلت بعده البرتقال أو أقراص فيتامين (ج) فأنت تكتب شهادة وفاتك. الباحثون في جامعة شيكاغو وجدوا ان لحم الروبيان (الجمبرى) يتضمن تركيزًا عالياً من مركبات الزرنيخ مع البوتاسيوم. مع فيتامين سي يتحول الزرنيخ إلى ثالث أكسيد الزرنيخ، ويقتل الشخص الأحمق. حتى قبل أن تبحث عن المعلومة،

فمن الصعب تصور أن يؤكسد فيتامين سي الزرنيخ بينما هو عامل مختزل معروف.. فيتامين سي لا يؤكسد بل يمنع الأكسدة!. طبعًا تبين أن هذا التهديد كلام فارغ خال من الصحة، وهذه الإشاعة تجوب شبكة الإنترنت منذ عام 2001، ولا يبدو أنها ستموت أبدًا لأن كل واحد يعرفها يعتقد أنه عرف شيئًا لم يعرفه أحد من قبل.

ما أريد قوله هنا يتلخص في نقاط:

1- نصف العلم جهل.. والإنترنت كما أفادت، نشرت الجهل والمعلومات الخاطئة بسرعة البرق. ومن الصعب أن تقرر: هل انتشار المعلومات الخاطئة أفضل أم عدم انتشار المعلومات على الإطلاق ؟

2- في قصة لبرخت يحكي عن رجل لم تعد لديه لذة في الحياة سوى الكلام عن السرطان الذي أصيب به.. هنا نجد أن الناس لم تعد لديها لذة في الحياة سوى التهديد بالسرطان.. هذا ما أطلق عليه (شهوة السرطان) حيث كل شيء مسرطن، وهذا الكلام يظفر بالتصديق دومًا بسرعة البرق. بعض التحذيرات حقيقي وثابت علميًا ولا يحتمل المزاح، مثل أن رقائق البطاطس التي يلتهمها

الجميع تحتوي مادة الأكريلاميد المسرطنة، ومثل أن السواد الدفين تحت قشرة البصل هو مادة أفلاتوكسين التي تسبب سرطان الكبد.. لكن هناك الكثير من الهراء كذلك: موجات الميكروويف تسبب السرطان (بحثت بدقة عن هذه النقطة وأعرف يقينًا أنها كاذبة). وفي أحد المؤتمرات العلمية الكبرى وقف أستاذ مصري كبير ليؤكد أن عقار البرازيكوانتل الذي أنقذ مصر من البلهارسيا يسبب السرطان، وهنا سأله أحد الأساتذة الذين يديرون الجلسة: "أين قيل هذا ؟". قال مصرًا: "في الأبحاث.. في كل مكان.. ". هنا قال الأستاذ الثاني: "أنا لا أتحمل مسئولية أن تقال هذه الكلمات غير المسئولة في مؤتمر علمي، وأمام مئات من شباب الأطباء، الذين سيعتقد كل منهم أن هذا العقار الرائع يسبب السرطان، وبالتأكيد لن يكتبوه بعد اليوم بسببك". نفس الشيء قيل عن عقار آخر مهم هو (رانيتدين).. لا مشكلة.. قل عن أي دواء أنه يسبب السرطان وسوف يصدقك الجميع لأن الناس تحب أن تكون الأطعمة والأدوية خطيرة وقاتلة، وتكره جدًا من يقول العكس.

3- جزء كبير من هذه الحملات يتعلق بمعارك طاحنة

بين علامات تجارية.. إشاعة أن البيبسي كولا تنقل التهاب الكبد سي هي بالتأكيد من هذا الطراز. طبعًا يعرف أصغر طالب طب أن هذا كلام فارغ. هناك كذلك الرغبة في الشعور بالتميز وأنك تعرف ما لا يعرفه الآخرون. لا ألوم المواطن العادي الذي لا يعرف، لكن ألوم الأطباء الذين يجرهم تيار الخرافة معه وهم قادرون على التحقق.. عندما يقول طبيب على شاشة التلفزيون إن الجزر – مثلاً – يسبب السرطان، فهل تلوم المواطن العادي عندما يخاف ؟

4- الخوف موجات.. موجة الخوف من جنون البقر – الذي لم يثبت قط أنه ينتقل من اللحم للبشر – ثم ظهرت انفلونزا الطيور.. هذا مرض حقيقي مخيف، لكنك قادر على الوقاية منه ببعض التعليمات الصحية، والتخلص من جلد الدجاج والطهي الجيد والابتعاد عن أي مكان تغطي أرضه مخلفات الدجاج. لكن الناس أصيبوا بالذعر وهكذا نسوا ما كان وعادوا يأكلون اللحم.. ثم ظهرت انفلونزا الخنازير فنسى الناس كل شيء عن انفلونزا الطيور وعادوا يأكلون الدجاج! . ومن جديد لا لوم عليهم فلابد أن يأكلوا شيئًا، لكني ألوم الإعلام غير المسئول وثقافة الرعب السائدة. أحيانًا يلعب

النجوم دورًا في هذا.. مثلاً كـان هنـاك برنـامج جمـاهيري استـضاف الفنان (محيي إسماعيل) ليعلن إعلانًا خطيرًا: هو لن يأكـل أي شـيء بعد اليوم!.. كل شيء ملوث مسمم وخطـر، وتكلـم عـن الـدودة الـتي تسكن عروق ورقة الخص لتبدو مثلها بالضبط فنلتهمهـا.. بعـد هـذا العمر لم أسمع عن هذه الدودة قـط. لابـد مـن طريقـة انتقـال تتحمـل العصارة المعدية والحمض، والخص لا ينقل الفاشيولا أو الاسـكاريس بهذه الطريقة أبدًا.

5- لابد من أن يزداد حظنا من العقليـة النقديـة: هـل هذا ممكن؟.. ما الدليل؟.. لا تصدق كل شيء بل كن وغـدًا متـشككًا.. بعـض البحـث علـى شـبكة الإنترنـت في المواقـع المحترمـة (ولـيس المنتديات) مفيد، وقد يفيد كذلك استشارة من تعرف مـن أطبـاء. ولا ترسـل الرسـالة لطـرف ثالـث قبـل أن تكـون واثقـًا مـن أن هـذه هـي الحقيقة.

حمى عدم اليقين

حمى كيو.. مرض قديم يعرفه كل طالب طب، ينقله ميكروب اسمه (كوكزيلا برنتي) الذي يمت بصلة قرابة للتيفوس. تم وصف المرض في أستراليا منذ قرن تقريبًا والميكروب معروف منذ عام 1937. هذا المرض ينتقل عن طريق الخراف والماعز إلى الإنسان بوساطة الاستنشاق واللبن غير المغلي. في المناطق الريفية في مصر يمكن القول إن كل طفل أصيب به يومًا ما. الأعراض عامة ومبهمة جدًا لهذا سمي المرض (حمى كيو Q) بمعنى Query أو (عدم اليقين)، لكنها قد تشبه الإنفلونزا، والأشعة على الصدر تريك ظلالاً من الالتهاب، وقد يحدث التهاب في صمامات القلب التالفة أصلاً. عامة يستجيب المرض بسهولة لبعض كبسولات التتراسيكلين أو

السلفا وتنتهي المشكلة، ومن السياسات العامة التي تعلمتها أيام الوحدة الريفية أن تجرب التتراسيكلين مع هذه الحميات الغامضة لو لم يكن هناك مانع طبي، لأن فرصة عمل اختبارات معقدة شبه مستحيلة مع إمكانياتنا، ولأن التتراسيكلين قد يقضي على مرض اللجيونيلا والسيتاكوزس بالمرة.

المرض قديم كما قلت ومتوطن في مصر..

لماذا قررت الصحف إذن أن (إنفلونزا المعيز تجتاح العالم)، بينما بدأ الأمر بخبر في موقع غربي يقول إن هولندا تواجه انتشارًا لحمى كيو ؟

هي ليست إنفلونزا على الإطلاق ففيروس الإنفلونزا لا يسببها، وهي قابلة للعلاج بالمضادات الحيوية العادية، ومنظمة الصحة العالمية لم تستعمل سوى اسم (حمى كيو).. وهي لا تجتاح العالم.. لقد كانت موجودة في مصر طيلة الوقت، ولا أستبعد أن يكون الصحفي الذي كتب الخبر نفسه مصابًا بها. منتهى الجهل وعدم المسئولية واستغلال الفرص والأنانية وعدم التدقيق والبحث عن الإثارة بأي شكل، وهكذا التقطت كل الصحف ومواقع الإنترنت

الخبر وصارت هناك ظاهرة جديدة اسمها (إنفلونزا المعيز)، وجاء اليوم الذي يسألني فيه سائق التاكسي:

-"حنعمل إيه في انفلونزا المعيز دي يا باشمهندز ؟"

قلت له إنني لست مهندزًا لكنني طبيب أمراض معدية، وكل هذا كلام فارغ، فراح يهز رأسه ويمصمص شفتيه مع ترديد (يا سلام) مبديًا انبهاره بدقتي العلمية وأنا أشرح له ما هي حمى كيو هذه، ثم في النهاية قال في أسى وهو يتصعب:

-"مشكلة انفلونزا المعيز دي فعلاً.. !"

لا جدوى.. . لا أحد يصغي لأحد في هذا العالم.. كل كلامي قد نزل في البالوعة..

المشكلة ليست انفلونزا المعيز، بل هذا التكاثر السرطاني لمساحات النشر في الصحف ومواقع الإنترنت والفضائيات. هذا لم يؤد لحيوية الديمقراطية بل فتح المجال لنشر الكلام الفارغ.. إن مصر تعاني فعلاً من حمى كيو أو حمى عدم اليقين. هذه المساحات يجب أن تُملأ.. بالرأي.. بالفكر.. بالأخبار الكاذبة.. بالأسمنت والطوب.. المهم أن تُملأ..

في صحيفة مختصة بالجرائم وجدت منذ عامين خبرًا مثيرًا على الصفحة الأولى: "حشرة غريبة تثير الرعب في الزقازيق وتقتل 700 مواطن.. الحشرة تنقل الكوليرا بعضتها!.. "

أبسط شيء أن الكوليرا لا تنتقل بلدغ الحشرات.. كل تلميذ في الابتدائي يعرف هذا، ومعنى ذلك ببساطة أن المحرر ساقط ابتدائية. أما عن صورة الحشرة ذاتها فصورة بالمجهر الإلكتروني لنوع من (الحلم) الذي يعيش في طبقات الجلد الميتة السطحية ويأكلها، ويسبب نوبات الربو لدى المرضى. طبعًا عندما تُكبّر صورته تصير أقرب للقطة من فيلم خيال علمي مرعب.

المهم هو البيع.. المهم هو ملء الصفحات وليذهب المنطق العلمي للجحيم، والأهم فليذهب القارئ العادي للجحيم، ذلك الذي سيصاب بالهلع وهو يشعر أن الحياة كلها ضده .... لقد خرج الموت ليظفر به هو وأطفاله..

الآن نأتي لجريدة مستقلة محترمة واسعة الانتشار (برضه ليست الدستور!) نشرت في الصفحة الأولى منذ أعوام خبرًا يقول ما معناه إن أسدًا في حديقة حيوان الجيزة التهم لحم حمار مصاب

بجنون البقر.. النتيجة أن الأسد جن وأصابه هياج فظيع مما اضطر السلطات لقتله رميًا بالرصاص. طبعًا لا أحد يذكر هذا الخبر لكني قصصته من الجريدة عالمًا أنني سأكتب عنه يومًا ما.

من كتب هذا الخبر؟.. هل كان بكامل قواه العقلية؟.. ومن رئيس التحرير الذي سمح له بهذا؟.. هل الحمير تصاب بجنون البقر؟.. وهل المرض ينتقل للأسود؟.. وهل يسبب اللحم المرض خلال دقائق بينما نحن نعرف أن الأمر يستغرق نحو عشر سنوات؟.. وهل جنون البقر يسبب الهياج بينما نحن نعرف أنه مجرد نوع من فقدان التوازن يجعل الأبقار تمشي كالسكارى ؟

أما عن التوالد الذاتي لمقال (سارة ستون) وكلام النصاب الأمريكي (هوروفيتز) والولية وزيرة الصحة الفنلندية المزعومة، فظاهرة تثير الإعجاب فعلاً. كلما حسبت الناس نسيت هذا الكلام الفارغ عاد للسطح بقوة في مقال في جريدة هنا أو هناك. لا تأخذوا اللقاح.. اللقاح فيه سم قاتل.. اللقاح مؤامرة لجعل نصف البشر أغبياء متخلفين عقليًا ومشلولين.. إياكم والسكوالين.. السكوالين يقتل يا حلوين....

وها هي ذي جريدة الدستور تخصص نصف صفحة من عددها الأسبوعي لتعيد نشر كلام هوروفيتز وسارة ستون، برغم أن سارة ستون كتبت مقالها عن مخاطر اللقاح قبل أن تُنتج من اللقاح جرعة واحدة. وهل الوقت وقت هذا الكلام غير العلمي بينما المرض يزداد توحشًا؟. هناك خبر يقول: " كشفت خبيرة اللقاحات بمنظمة الصحة العالمية ماري بولي عن الاشتباه في إصابة ما لا يقل عن 12 شخصاً من مختلف دول العالم بالشلل نتيجة حقنهم باللقاح المضاد لإنفلونزا الخنازير، وأضافت: لم يثبت بالدليل القاطع ارتباط أي من حالات الإصابة بمتلازمة (جوليان باري) باللقاح حتي الآن". هل فهمت أي شيء؟.. هناك 12 شخصًا أصابهم اللقاح بالشلل لكن لم يثبت أن اللقاح أصابهم بالشلل!.

هناك موقع إنترنت أعلن في انتصار عن وفاة تلميذ مصري أخذ اللقاح، ثم تقرأ الخبر فتكتشف أنه يتحدث عن الطفل الذي أصيب بانفلونزا الخنازير ومات عقب جرعة من الفولتارين. السبب أن الأخ محرر الخبر ظن أن اللقاح اسمه (فولتارين). وبهذه المناسبة أعتقد أن عقار (دايكلوفيناك) أو فولتارين تلقى ضربة قوية جدًا بعد هذه

الدعاية السيئة له برغم أنه من أهم الأدوية في ترسانة مضادات الالتهاب/مخفضات الحرارة. لماذا وضعته وزارة الصحة في قائمة الممنوعات بهذه السهولة برغم أن أحدًا لم يتهمه بشيء سوى في بعض حالات التهاب المخ في اليابان، وهذا كلام قديم؟. اليوم يمكن أن يمزق المريض طبيبه لو كتب له (دايكلوفيناك)، ولسوف تكتب الصحف صفحات كاملة عن مسلسل الجهل لدى الأطباء.. يا لله.. خلي الناس تقرا وتنبسط..

الآن صارت مشكلة المواطن المصري مزدوجة: اللقاح قاتل ويحدث شللاً. اللقاح غير متوافر ويُعطى للمحظوظين فقط! ! ! هذا يذكرك بكلمة وودي آلين الساخرة: الحياة قاسية مليئة بالآلام لكنها كذلك قصيرة.. قصيرة جدًا!

هناك عشرات المشاكل تواجه مصر اليوم، بدءًا بالتوريث مرورًا بمياه النيل والتعليم والبطالة.. وانتهاء بإنفلونزا الخنازير. لكنني أضيف لها خطرًا يعبث عبثًا مروعًا في عقل المواطن الذي يصدق كل شيء ويشك في كل شيء..هذا الخطر هو النشر غير المسئول أو الجاهل أو معدوم الضمير.

لا تكن ساذجًا

عندما كنا طلابًا، مشيت مع صديقي هذا في الكلية نتبادل عبارات المزاح.. كان في حالة من الانبساط والرغبة الشيطانية في العبث، عندما دنا منا ذلك الطالب المذعور يسألنا عما إذا كانت نتيجة البكالوريوس قد علقت.. قال صديقي: "لم تعلق بعد.. إنهم يقومون بتغييرها! ". نظر له الطالب في عدم فهم، فقال صديقي في غموض: "ألم تفهم بعد؟.. ابنة العميد ضمن الطلبة.. لا تكن ساذجًا كطفل!.. افهم! ". أطلق الطالب المذعور سبة على غرار "آه يا بلد الـ.."... وانصرف يجري كالمجنون، بينما انفجر صديقي ضاحكًا.. لقد ولدت إشاعة قوية سوف تحتاج لوقت طويل حتى تتلاشى، ولسوف يرددها الجميع ناسين أن العميد – وقتها – ليس له أولاد

على الإطلاق! !

خلاص لم أعد أتحمل المزيد من نظرية المؤامرة.. بلغت روحي الحلقوم، فلم أعد أطيق أن أرى واحدًا من هؤلاء الأذكياء الذين يضيقون عيونهم ويضحكون في غموض، ويقولون: "لا تكن سانجًا". كل شيء مؤامرة.. كل شيء تم التخطيط له من قبل وليس كما يبدو.. إن نظرية المؤامرة لذيذة جدًا وتشعرنا بالتفوق على الآخرين السطحيين. تمطر السماء فينظر لك في حنكة وذكاء ويقول: "البلهاء يعتقدون أن هذا المطر طبيعي.. لا يعرفون أنها مؤامرة من الحكومة الأمريكية". وبالطبع في مناخ مرضي مظلم كالذي يعيشه العالم العربي تزدهر فطريات وطحالب وجراثيم نظرية المؤامرة جدًا، حتى أنك قد تصاب بالعته لو واظبت لفترة على متابعة المنتديات الخليجية، والأكثر طرافة أن الكل يصدق ويشكر صاحب النظرية لأنه جعلهم يعرفون ما كانوا يجهلون..

منذ أعوام سادت العالم الغربي نظرية حمقاء عن أن الأمريكان لم يصلوا للقمر قط.. قالوا إن ناسا تلعب أكبر خدعة في التاريخ، وقد تبنى كثيرون في العالم العربي هذه الإشاعة حتى بدأت إشاعة أخرى

تقضي بأن لـويس أرمـسترونج – أول مـن مـشى علـى القمـر – سمـع صوت الآذان على القمـر ثـم سمعـه بعـد عودتـه لـلأرض فأسـلم علـى الفور، وبالطبع تتكتم الحكومة الأمريكيـة هـذه القصة. الطريـف أن ذات المنتدى يضم الرأيين معًا غالبًا.. ترى هل مشي أرمسترونج علـى القمر فأسـلم، أم لم يـصل أحـد للقمـر أصـلاً؟.. والأظـرف أن صـاحب الموضوع لابد أن يكتب قـائلاً: "نحـن العـرب سـذج نـصدق كـل شـيء وسهلو الخداع! ". هذا كلام دقيق جـدًا، لكـن لـيس بالطريقـة الـتي تريدها يا صاحبي..

إن إشاعة ناسا شـهيرة علـى كـل حـال، وقـد بـدأت ببرنـامج سخيف قدمته قناة فوكس الإخبارية عـام 2001. يـرى مـن صـنعوا البرنامج أن صور الهبوط على القمر تم تصويرها في ستوديو في قاعـدة جوية في (سان برناردينو).. مثلاً انعكاسات الأشياء على زجاج قنـاع رواد الفضاء يوحي بوضع معكوس للعلم الأمريكي غـير الموضـع الـذي غرس فيه فعلاً. العلم يرفرف مـع النـسيم فكيـف يوجـد نـسيم علـى ظهر القمر؟. لا توجد أية نجوم في أية صورة التقطتـها ناسا بـرغم أنـه من المنطقي أن تزدان السماء بها متـى غادرنـا غلافنـا الجـوي. يقـول

المدافعون عن ناسا إن هذا منطقي لأن ضوء الشمس يغمر سطح القمر ويحجب أية نجوم، والأمر يشبه خروجك من غرفة ساطعة الإضاءة إلى الليل.. عندها لن ترى أي نجم. قال المشككون إن آثار المركبة القمرية واضحة ومحددة أكثر من اللازم، ولابد من خلط التربة بالماء لإحداث أثر كهذا.. الإجابة هي أن التربة القمرية ناعمة جدًا كالدقيق تلتصق بالأحذية وترسم أي شكل يلتصق بها من دون ماء.

كيف لم تحدث المركبة ثقبًا تحتها عندما لمست تربة القمر؟.. الإجابة هي أن مساحة القاعدة التي تمس التربة عريضة مما أدى لتوزيع الضغط وبالتالي صار الضغط عليها لا يتجاوز وزن رائد الفضاء ذاته، دعك من أن عدم وجود ثقب هو أقرب للتصديق من وجوده، لأنه كان بوسع ملفقي المشهد أن يصنعوا واحدًا.

قال المشككون إن أحد الجبال عليه حرف C بشكل واضح وإن هذه علامة تخص صاحب (العهدة) كما يكتبون (بيومي) على ظهر الكراسي عندنا.. الحقيقة أن هذا الحرف لم يوجد في الصورة الأصلية التي صار عمرها ثلاثين عامًا، إنما في النسخ المستخدمة منها فهو مجرد عيب تحميض. أما النقطة الأهم التي يكررونها في كل

مقالاتهم تقريبًا فهي: كيف استطاع رواد الفضاء اختراق حزام (فان ألين) الإشعاعي القاتل المحيط بالأرض ؟... الإجابة هي أنهم يجتازونه مرتين فقط أثناء المغادرة وأثناء الرحيل، وتكون سرعتهم خمسة وعشرين ألف ميل في الساعة لهذا يتعرضون له أقل من ساعة، وهذا لا يكفي إلا لإصابتهم ببعض الغثيان.

يتساءل البعض: لماذا لم ترسل ناسا رجالاً آخرين للقمر منذ عام 1972؟.. الإجابة هي أن العملية كانت مكلفة وخطِرة.. وقد أرسلت ناسا 12 رجلاً بالفعل.. وأثبتت أنها قهرتِ الاتحاد السوفييتي. هذا يكفي.. خاصة أن تنفيذ نفس المهمات اليوم سوف يكون باهظًا جدًا بحساب التضخم.

من ضمن ما يقال كذلك إن عشرة رواد ماتوا أثناء مشروع أبوللو بظروف غامضة لا تفسير لها في مركبات أو طائرات نفاثة. قالوا إنها حوادث متعمدة كي لا يتكلموا عن الفضيحة التي لمسوا أبعادها. السؤال هنا هو: لماذا تفعل ناسا هذا؟ وما مصلحتها؟.. يجيب المشككون أن الهدف بسيط جدًا. لكي تحصل على 30 مليار دولار من أموال دافعي الضرائب.. ثم أن الحكومة الأمريكية كانت تعاني الويلات في فيتنام

لـذا أرادت أن تـشغل النـاس بموضـوع آخـر، ولـو لاحظـت التـواريخ لوجدت أن تاريخ الخروج من فيتنام يتزامن مع توقف رحلات الهبـوط على القمر بعد أبوللو 17. دعك من رغبة الحكومـة الأمريكيـة في قهـر السوفييت الذين كانوا يعملـون بحمـاس مجنـون للهـدف ذاتـه، لهـذا اخترعت هذا الهبوط لتدعي التفوق عليهم.

هكذا تنهال النظريات عندنا.. صدام لم يقـبض عليـه.. صـدام قبض عليه في زمن غير الذي أعلنوه بدليل البلح.. صدام لم يعدم وإنما أعدم البديل (هناك كتاب كامل سميك عن هذا الموضوع على كـل حـال عند عم مدبولي يرحمه الله).. قاتل نادين ليس قاتل نادين.. وكل من يقبض عليه في أيـة جريمـة لـيس هـو الفاعـل.. ياسـر عرفـات لـيس مريضًا إنما هي خدعة.. الفراعنة لم يبنوا الأهـرام وإنمـا قـوم عـاد.. مايكل جاكسون هو جيفارا لكـن الحكومـة الأمريكيـة تخفـي ذلـك.. فـيروس سـي أكذوبـة ولا وجـود لـه وإنمـا اخترعتـه شـركات الإنترفيرون..

لكن أصحاب نظرية المؤامرة لا يتعبـون ولا يخجلـون.. سـوف ينسون هذا الموضوع ويبدءون في تبني نظرية جديدة.. شعارهم هو: لا

تكن ساذجًا.. أنت أذكى من ذلك. كما ترى فالغرب يملك نظريات مؤامرة مثلنا، لكنه يتعامل معها بحجمها الحقيقى ولا يجعلها أسلوب حياة كما نفعل نحن، لكننا بالفعل نعانى مشكلة مع التذاكى واحتكار الحقيقة.

القسم الثالث

وفيه حديث طيب كالعنبر،

عن الأدب والفنون وحفلات الأوسكار

(سلام بومباي) بشكل آخر

لأسباب تتعلق بي أنا، لم أستطع أن أحب فيلم (الحالة الغريبة لبنجامين باتون) كما أحبه الجميع تقريبًا، لأنني شعرت بأنه مفرط الطول وأنه صمم بالقلم والمسطرة كي يحصد جوائز الأوسكار.. مثلما يقرر الشاعر أن يكتب قصيدة رقيقة فيحشد كل كلمات (الربيع) و(الندى) و(الشفاف) و(عبير) في بيت واحد. ثمة شيء ما غير أصيل ولم أرتح له، بينما شعرت أن فيلم (مليونير العشوائيات Slumdog millionaire) يفوح برائحة الصدق والعرق والوحل وروائح أخرى لا داعي لذكرها. يبدو أن الأكاديمية التي تمنح جوائز الأوسكار اتفقت معي في الرأي فنال (مليونير العشوائيات) ثماني جوائز أرى أنه يستحقها فعلاً.

هل يمكن أن تصنع فيلمًا جميلاً عن القبح؟.. هذا ما راهن عليه (دان بويل) وهو ذات ما صنعه (محمد خان) عندنا في (أحلام هند وكاميليا). لقد رأيت من قبل فيلم دان بويل (مراقبة القطارات) الذي رأى أيرلندا كما لم يرها أحد من قبل، وقد قدم لنا قاع قاع ذلك المجتمع..

من قاع قاع المجتمع الهندي يبدأ فيلم (مليونير العشوائيات) الذي كتب عن رواية للكاتب والدبلوماسي الهندي (فيكاس سواراب) وأعد له السيناريو السيناريست البريطاني (سيمون بوفوي). الفيلم يتحرك بطريقة شائقة بين الماضي والحاضر والمستقبل.. والمستقبل لن يظل كذلك للأبد لأن الحاضر سيسبقه.. لكن كل هذا اللعب الزمني مفهوم وسلس وخال من استعراضات العضلات الفكرية كالتي رأيناها في فيلم (ساعات). هذا الاستعراض الذي تشعر بأن غرضه أن يشعر المشاهد بأنه – البعيد – غبي بطيء الفهم.

المحور الرئيس حتى قرب النهاية هو التحقيق الذي يجريه ضابط شرطة هندي مع الشاب (جمال) أي الممثل الهندي (ديف بيتل).. الشاب الفقير الذي يعرف الجميع أنه نشأ في العشوائيات

والذي لا تسمح إمكانياته الثقافية ولا العقلية بالكثير. نرى الكثير من التعذيب على الطريقة المصرية.. الفتى يتلقى علقة ممتازة في قسم الشرطة تبلغ ذروتها بالصعق بالكهرباء.. ربما لهذا نشعر بألفة كلما رأينا أفلامًا هندية؛ فالدم واحد والفقر واحد والمشاكل واحدة، ومعاملة الشرطة واحدة..

نفهم من الحوار أن الفتى يتم استجوابه لأن الشرطة متأكدة من أنه يغش بطريقة ما في برنامج (من سيربح المليون ؟) الهندي. الفتى يجيب إجابات صحيحة بطريقة مذهلة، ويتقدم نحو حاجز عشرة ملايين روبية ويتجاوزه نحو العشرين مليونًا، لهذا صار رجال الشرطة على يقين من أنه يغش.. هناك من يرسل له إشارات وسط الجمهور أو هو زرع جهاز اتصال في جسده..

ما يدعم شكوك ضابط الشرطة هو أن الفتى يجهل أشياء بديهية فعلاً يعرفها أي طفل في الخامسة، مثل الكلمات المكتوبة على العلم الهندي أو الصورة الموجودة على العملة الهندية.. هنا يسأل الفتى الضابط عن سعر نوع من الحلوى الهندية الرخيصة، فلا يعرف.. يسأله من سرق دراجة الصبي فلان؟.. لا يرد الضابط

فيجيب الفتى في سخرية: كل طفل في (دارافي) يعرف الإجابة!

هنا ينطلق الفيلم من فرضية مثيرة، هي أن حياة الفتى العاصفة ومرمطته في أزقة (مومباي) لقنتاه الإجابات الصحيحة.. لقد كانت الأزقة هي مدرسته الحقيقية.. ولهذا استطاع أن يصمد لكل الأسئلة. طبعًا الفرضية غير معقولة، لأنه لا أحد يملك حظًا كهذا الحظ الذي يجعله يجيب عن كل الأسئلة، لكنك تقبل هذا من منطلق قاعدة (التعطيل الإرادي لعدم التصديق) التي اخترعها الخواجة كولريدج، أو قاعدة (دعني أنخدع – دعني أخدعك) التي اخترعها العبد لله..

يحكي الفتى قصة حياته للضابط ويتداخل هذا مع مشاهد من برنامج (من سيربح المليون) نفسه.. نسمع الأسئلة وسخرية مقدم البرنامج المغرور وتظرفه، خاصة عندما عرف أن الفتى (شاي والا) – (ولد شاي) – مهمته تقديم الشاي للعاملين في شركة اتصالات كبرى.

ثم نرى رد فعل الفتى الذي يستحضر من خبرات الماضي تجربة كانت لها علاقة بالإجابة.. مثلاً السؤال عن الصورة التي

يرسم بها الهندوس الرب (رام).. ماذا يمسك بـه في يـده اليمنـى؟.. هنـا يتـذكر الفتـى طفولتـه وهـو يلعـب في النهـر المتـسخ بينمـا أمـه تغـسل.. ثـم يهجـم علـى الحـي مجموعـة مـن الهنـدوس البلطجيـة ليفتكوا بالمسلمين.. تتلقى أم الفتى ضربة قاتلة على رأسها وتـسقط في الماء، بينما يفر (جمـال) وأخـوه.. هنـا يجـدان أمامهمـا واحـدًا مـن الهندوس صبغ نفسه بـالأزرق ليبـدو مثـل إلـهـم (رام).. مـشهد لا يمحى من ذاكرته أبدًا.. طبعًا في يد (رام) اليمنى قوس وسهم..

الإجابة الصحيحة هي: قوس وسهم.. وهكذا تتوالى الإجابات مـع مقـدم البرنـامج الخبيـث المـراوغ (أنيـل كـابور) الـذي يتلاعـب بأعـصاب الفتـى ليخـسر.. مـثلاً الفتـى يـذكر أفـلام الممثـل (أميتـاب باتشان) كلها، والـسبب أنـه كـان مجنونًـا بـه في طفولتـه.. إن هـذه المنطقة العشوائية قرب المطار ترى هبوط طائرة (أميتاب) من ثم يعـم الجنون بين الفقراء ويهرعون ليروه.. ولع الـصبي يـؤدي بـه لمغـامرة مؤسفة هي أن يغوص بالكامل في حفرة من الفضلات البشرية ويخـرج مكسوًا بها ليطلب توقيع (أميتاب) علـى صـورة لـه.. مـن الواضـح أن الغوص في الفضلات البـشرية تيمـة مفـضلة عنـد (دان بويـل)؛ لأنـه

يصور في فيلم (مراقبة القطارات) رجلاً يغوص في مرحاض مليء ليبحث عن أقراص مخدرة، ويتحول الأمر لحلم فانتازي من السباحة وسط الفضلات! !

هكذا تتوالى الأسئلة التي يحلها الفتى بمعجزة ما، وبخبرات طفولته فقط.. . مع الأسئلة نرى بانوراما كاملة لحياته وصراعاته وقصة حبه الأليمة مع فتاة شوارع مثله اسمها (لاتيكا)، كان مصيرها محددًا بالطبع.. كل الأطفال يتسولون.. يكبر الفتيان فيصيرون لصوصًا وبلطجية، وتكبر الفتيات فيصرن عاهرات.

نكتشف هذا كله بينما ثلاثة خيوط لا تتوقف عن النمو وتتداخل وتتعقد مع بعضها:

1- خيط التحقيق في قسم الشرطة ومحاولة إقناع الضابط.

2- خيط حياة الفتى وعلاقته بأخيه والبحث عن حبيبته التي غاصت في أمواج المدينة.

3- خيط البرنامج نفسه مع مقدمه الخبيث الذي يحاول إقناع الفتى أنه في صفه، وهو يخدعه، وفي النهاية يشكوه

للشرطة بتهمة الغش في البرنامج ومن هنا نعرف لماذا بدأ الخيط الأول.

تتصاعد الأحداث، فلا داعي لسرد كل شيء.. هناك كذلك خطأ في السيناريو لن نتوقف عنده طويلاً (عندما قال في التحقيق إنه لم ير أخاه قط بعد الفراق في الفندق). فقط ينتهي الفيلم بمشهد استعراضي ضخم على محطة القطار، هو نوع من التحية للسينما الهندية التجارية أو (بوليوود) كما يسمونها.. لكن ما أبعد الفارق بين هذا البطل التعس النحيل وفتاته السمراء الواهنة، وبين أبطال بوليوود المفعمين صحة ورجولة وجمالاً.. من المستحيل أن يظفر هذان الشابان بالبطولة في فيلم هندي تجاري.

هذه هي الهند الحقيقية.. الهند التي لا نعرفها نحن.. الهند كما لم تصورها الكاميرا من قبل. بلد مليء بالفقر والجريمة والبؤس لكنه برغم ذلك ساحر. يمكنك في لحظات كثيرة أن تتنهد ارتياحًا لأننا لا نعيش في هذا الفقر الصادم الموجع. على فكرة لم أعرف من قبل أن عشرين مليون روبية تقترب من نصف مليون دولار.

بالطبع أثار الفيلم الكثير من الاحتجاج في الهند لأنه يظهرها بطريقة فاضحة غير سياحية بالمرة، واحتج الهندوس على إظهارهم كوحوش.. هناك جبل من القضايا مرفوعة عليه، لكن هذا كل شيء.. من المستحيل أن نتصور أن يقدم هذا الفيلم في مصر أصلاً سواء قدمه مخرج مصري أو بريطاني. بالمنطق الرقابي عندنا ليس هذا الفيلم سوى حبل طوله ساعتين لنشر الغسيل المتسخ.

من ناحية أخرى لا أعرف لماذا لم يتذكر أحد تشابه هذا الفيلم الشديد مع (سلام بومباي)، وهو فيلم جميل آخر قدمته عام 1988 المخرجة الهندية المشاغبة (ميرا ناير) التي يسبب كل فيلم لها عاصفة من الجدل.. في ذاك الفيلم أطفال شوارع في (مومباي) وقصة حب بين طفل شارع وفتاة لا تلبث أن تتحول إلى غانية خصوصية لأحد الأثرياء. لا أعرف لماذا نسيه الجميع..

(مليونير العشوائيات) فيلم ممتع ولاهث الإيقاع، فلا تشعر لحظة أنك جلست متسمرًا أمام الشاشة ساعتين. كل هذا مجدول بالأغاني الرائعة لـ (أ. ر. رحمن) الذي استحق بحق جائزتي أوسكار عن الموسيقا التصويرية وأفضل أغنية. تصوير فائق الجمال

يتعامل مع القبح والقذارة بعذوبة شديدة لا تعرف كيف، ويعتمد كثيرًا جدًا على الكاميرا المحمولة باليد.

من الطريف أن بويل يعترف بأنه رأى الكثير من أفلام بوليوود إياها ليتعلم طريقتها في التعامل، وقد أخذ السيناريست الكثير من خيوط أشرار بوليوود لينسج بها شخصيات الأشرار في فيلمه، كما أخذ خيوطًا مهمة من فيلم هندي بوليسي اسمه (ديوار).. حتى طريقة بوليوود في التعبير عن مرور السنين اقتبسها، حيث يثب الشقيقان من القطار فإذا هما لحظة السقوط قد تقدما سبع سنوات في العمر.

باختصار: لو ابتلعت منطق أن خبرات الفتى في طفولته تكفي للإجابة عن كل أسئلة البرنامج، فأنت لن تجد مشكلة في هذا الفيلم ولسوف يروق لك بشدة.

أفاتار: الرقص مع الذئاب الفضائية

لا يمكنك أن تحتفظ برأي محايد تجاه فيلم أفاتار، فإما أن تهيم به حبًا وتعتبره قطعة من الشعر المرئي، أو تمقته وتعتبره تافهًا لا يستحق هذه الضوضاء. بعد دخول الفيلم كتبت هذا المقال وتأثيره لما ينمح بعد من شبكيتي. عنوان الفيلم (أفاتار) كان موضع خلاف قانوني بين المخرج جيمس كاميرون والمخرج هندي الأصل (م. نايت شليمان) الذي كان ينوي تقديم فيلمه الجديد بذات العنوان. هواة الكمبيوتر يحفظون الكلمة طبعًا؛ لكن معناها اللغوي الدقيق هو تجسد الإله الهندوسي فيشنو في صورة إنسان أو نبات. إنه مفهوم معقد مرتبط جدًا بعقيدة تناسخ الأرواح، لكنه في هذا الفيلم يرمز للكيانات البديلة التي ابتكرها الجيش الأمريكي لتتمكن من العيش

على كوكب له هواء سام وبيئة معادية.

أما عن الفيلم نفسه........

أولاً: يجب التفرقة بين فن السينما، وبين التقنيات التي يتم بها تحسين هذا الاختراع، والغرض في النهاية إغراء المشاهد بالخروج من بيته للذهاب لدار السينما.. يعني يفارق بيته الدافئ ويبحث عن قميص مكتمل الأزرار، ويفتش عن الحذاء تحت الفراش، ويخترق زحام الشوارع، ثم يبتاع تذكرة غالية – ثمنها ثمن كيلو لحم في حالتنا هذه – ليجلس في مكان واحد لمدة ثلاث ساعات تقريبًا. من أجل هذا الغرض ظهرت التقنيات المختلفة التي لن يقدمها التلفزيون أبدًا؛ مثل السينراما والآيماكس.. وفي مصر رأينا فيلم (الزلزال) يعرض بطريقة (سنسور سارواند) التي كانت تهز دار السينما هزًا لدرجة أن الغبار كان يتساقط من سقف السينما على رأسي. في الخمسينات كانت في الخارج تجارب الـ Smellies أو الأفلام ذات الرائحة، والتي تتلخص في أن يفتح المشاهد كراسة صغيرة مرقمة ليشم رائحة معينة حسب المشهد، كما كانت هناك أسطوانات تضخ الروائح في نهاية السينما. بعد هذا ظهرت تقنيات التجسيم التي شهدت فترات من الظهور

والتراجع. كل هذا لا علاقة له بفن السينما ذاته، ولكنها أشياء تزيد الإبهار وتخفي الحقيقة إلى حد ما. وانطباعي عنها أنها فقرة من فقرات الملاهي في النهاية، لا تختلف عن (السيميولاتور) أو (مسرح المحاكاة) الذي تدخله في دريم بارك أو ماجيك لاند. معظمنا رأى السيمولبيتور ولم يتكلم قط عن جودة سيناريو وتصوير وإخراج الفيلم المصاحب له لأن المؤثرات هي الهدف.

لهذا عندما عرضت الأفلام المجسمة في مصر في سينما ريفولي، ورأينا (بيت الرعب المجسم) و(هجوم على المتفرجين) و(الأطفال الجواسيس).. الخ.. لم تكن أفلامًا جيدة على الإطلاق. كانت القصة مجرد ذريعة مصممة بعناية بحيث يقذف الأبطال أشياء على الجمهور طيلة الوقت، وتنفجر النيران أو المياه في وجوههم. بالتالي هي مجرد فقرات ملاه لا أكثر، دعك بالطبع من الصداع الذي يهشم رأسك طيلة اليوم التالي.

فيلم (أفاتار) ثلاثي الأبعاد.. وقد نجح بالفعل في أن يأخذك من يدك ليلقي بك في قلب هذا العالم الغريب (بندورا). أعتقد أن الأبعاد الثلاثية كانت موفقة جدًا خاصة مع شريط الصوت المتاز. في

بعض المشاهد كنت تسمع الأصوات من خلف كتفك، وكانت السهام تضرب سقف السينما. لكن هذا يعني كذلك أنه لا وجود له بعيدًا عن شاشة السينما.. سوف يتلاشى ويضمحل.. لا يمكن أن تراه في التلفزيون لأنه سيبدو أضعف من أية حلقة من مسلسل ستار تريك.

ثانيًا: قصة الفيلم ليست خارقة وليست تحفة فنية. قصة بسيطة جدًا اشتقاقية تذكرك بعد دقائق بـ (يرقص مع الذئاب). جندي أمريكي مارق يتعرف حياة البدائيين فيكتشف أن لهم حضارتهم الخاصة الثرية، وأنهم ليسوا بالتخلف الذي حسبه، ويتعلم الكثير جدًا منهم. بعد قليل يقع في الحب مع واحدة منهم، وفي النهاية يحارب قومه معهم.. هناك عملية جلد ذاتي للعسكرية الأمريكية ولربما تذكرنا العراق وأفغانستان إلى حد ما، مما يضفي على الفيلم لمسة سياسية لا بأس بها، لكن يجب الاعتراف بأن هناك الكثير من المباشرة في الحوار.. "أصحاب الأسهم يكرهون الموت والدمار، لكنهم يكرهون هبوط الأسهم أكثر".. هناك الكثير من مادة نسيت اسمها تحت الشجرة الأم لذا لابد من تدميرها غير مبالين بمشاعر هؤلاء. والجنرال فظ بطريقة مبالغ فيها يقف في الطائرة

المهاجمة يشرب القهوة ويتلذذ بالقصف و(أول دورة كئوس الليلة على حسابي).. حوار مباشر جدًا يذكرني بالمسرحيات الوطنية التي كانت توزع مع مجلة بناء الصين: (أنا شرير ورأسمالي لذا أحارب البروليتاريا وقوى الشعب العاملة البطلة).

من أجل هذه النقطة بالذات لم يكن الكل سعداء بالفيلم، وعندما تراقب وجوههم بعد العرض تشعر بأنهم خدعوا بشكل ما، وهذا يقودنا لاستنتاج مهم هو أن الناس تتفاوت في تقيم التجربة البصرية.. هناك من يضعها في المقدمة، وهناك من يضع القصة في المقدمة.

ثالثًا: الفيلم يثير قضية أخلاقية مربكة نوعًا.. هل بطل الفيلم يعتبر بطلاً فعلاً؟.. وبأية مقاييس؟.. مقاييسنا أم المقاييس الفضائية؟.. لقد حارب قومه وأحرق طائراتهم، فلماذا لا نعتبره خائنًا ؟ وهل مفاهيم الإنسانية تسري على أهل ذلك الكوكب وهم ليسوا بشرًا أصلاً؟.. عندما تشاهد الفيلم ستكون الإجابة محسومة في صالح أهل الكوكب، لكن هل الأمور بهذا الوضوح دومًا؟.. لو كلف طيار عربي بقصف مدينة إسرائيلية، فهل من الطبيعي والمستحب أن

يتمرد ويقتل زملاءه العرب ؟

رابعًا: جرعة الإبهـار البـصري في الفـيلم لا تـصدق ولا يمكـن وصفها أو التعبير عنها. لن تـصدق أن هـذا قـد تم عملـه في الـستوديو وأن هناك بشرًا وراء هذا كله. كل عود نبات وكل شظية مشتعلة وكل بتلة زهرة تحت السيطرة الكاملة وعوملت بعناية تامة. إن الفيلم قـد حرك سقف الإبـهار البـصري إلى آفـاق جديـدة بحيـث تـزداد المهمـة صعوبة على القادمين بعده، وهي مشكلة حقيقية لأن هناك لحظة لـن يستطيع فيها القادمون إضافة جديد وعندها يعلن الناس سـأمهم. لـو قدم فـيلم (مـاتريكس) اليـوم لبـدا لمـن رأى أفاتـار تافهًـا بـدائيًا. إن المـشاهد يتحـول بالتـدريج إلى طفـل مـدلل رأى كـل شـيء ولا يمكـن إبهاره أبدًا. بشكل خاص انبهرت بمـشهد الليلـة الأولى للبطـل علـى الكوكب عندما هاجمته الوحوش، وعنـدما اكتـشف أن كـل النباتـات تضيء لـيلاً، وركـوب ذلـك الديناصـور المجـنح في الـسماء، والغـارة الجوية الضخمة الأخيرة، كما أن الاتصال بكـل الكائنـات عـن طريـق الضفيرة العصبية التي تخرج من الرءوس كان ساحرًا.

الخلاصة بعد كل هذا الكلام المتضارب: الفيلم تجربة بـصرية

بالغة الثراء. لو كنت تنوي مثلي الاكتفاء بهذا والاستمتاع برحلة في صاروخ الملاهي تنقلك إلى كوكب آخر كل شيء فيه غريب، فلا تتردد لحظة.. الفيلم قد صنع من أجلك. أما لو كنت من هواة القصص المحبوكة ومن سرق المستند مِن مَن، ومن يخبئ الميكروفيلم في ضرسه، فالفيلم لا يناسبك ومن الأفضل أن تحتفظ بالخمسة والأربعين جنيهًا الحبيبة في جيبك لأنها لن تعود للأبد.

فالس مع البشير:
صبرا وشاتيلا بعيون إسرائيلية

من الفرص النادرة أن تتاح لك مشاهدة فيلم إسرائيلي لتعرف كيف يفكر هؤلاء القوم، والأغرب أن يكون عن مذبحة (صبرا وشاتيلا) بالذات. قرأت عن فيلم (فالس مع البشير) من قبل فلم أوله اهتمامًا واعتبرته نوعًا من احتفال إسرائيل الدائم بذاتها، مع الحماس الغربي المعهود لكل ما هو إسرائيلي. لكن أتيحت لي مشاهدته مؤخرًا فأصابتني الدهشة من نضج الفكرة وجودة التنفيذ وجرعة الفن العالية، لدرجة أنني شعرت بالذنب لأنني أعجبت لهذا الحد بفيلم صنعه أعداؤنا. وإن خفف من هذا الشعور إدراكي أنني أشاهد نسخة غير قانونية (بالعربي: مهبوشة) أي أنني لم

أسهم في تمويل صناع الفيلم بمليم!.

الفيلم الذي عرض عام 2008 تسجيلي، لكنه يحمل الكثير من التدخل الروائي الذي يرقى به لدرجة الشعر، وقد أخرجه المخرج (آري فولمان) بطريقة الرسوم المتحركة واستغرق العمل فيه أربع سنوات. التحريك خشن نوعًا لكنه فعال، وهي الطريقة القديمة: إن لم تستطع منافسة ديزني – وهذا مستحيل – فكن نفسك. من شاهدوا فيلم (الغواصة الصفراء) للبيتلز سوف يلاحظون تشابهًا شديدًا في الأسلوب. طريقة الرسم تذكرك بالأفلام التي تعتمد على تحويل صور أشخاص حقيقيين إلى رسوم، وهي الطريقة التي تدعى (روتوسكوب Rotoscope)، لكن صناع الفيلم لم يفعلوا ذلك بل ابتكروا طريقة تحريك خاصة بهم على الكمبيوتر.

عرض الفيلم في مهرجان كان الفرنسي مرشحًا للسعفة الذهبية، ولم ينلها لكنه نال حشدًا من الجوائز في مهرجانات عدة وأرى أنه يستحقها، كما نال جائزة الكرة الذهبية كأول فيلم تسجيلي ينالها في التاريخ. كما رشح للأوسكار في قائمة التحريك لكنه لم ينل الجائزة.

كل الفيلم يحمل لمسة لونية وصوتية قاتمة كابوسية تجثم على الأنفاس وتشعرك بالحزن والاختناق. يبدأ الفيلم بصديق للمخرج – يظهر بشخصيته المرسومة – كان جنديًا معه عام 1982 في لبنان، واليوم يأتيه ليشكو من كابوس غريب.. هناك ستة وعشرون كلبًا تطارده في شوارع المدينة عازمة على تمزيقه.. لماذا ستة وعشرون وليس ثلاثين مثلاً يا أخي؟.. يقول صديقه الجندي إن السبب هو أنه قتل فعلاً 26 كلبًا في الحرب.. كان عاجزًا عن قتل البشر لذا كلفوه بقتل كلاب القرى التي تنبح فتنبه الفلسطينيين بعوائها.

هنا يفطن (فولمان) إلى أن لديه كابوسه الخاص.. إنه عار تمامًا مع مجموعة من الجنود الإسرائيليين العراة يسبحون في الظلام في البحر ويخرجون أمام ساحل بيروت بفنادقه الفاخرة.. الأدهى أنه لا يذكر حرفًا عن تلك الحرب ولا ما جرى في صبرا وشاتيلا.. لقد مُحي هذا الجزء من ذاكرته تمامًا، لذا يقرر أن يقوم برحلة للبحث عن ذاكرته الضائعة بين زملاء الحرب.

يقوم ببطء بجمع أجزاء الصورة الشنيعة من ذكريات أصدقائه، والبحث عن الخيط يستدعي السفر لهولندا للقاء صديق

قديم صنع ثروة من بيع الفلافل هناك، أو لقاء طبيبة نفسية تحدثه عن فقدان الذاكرة المحدود، وكيف أن كثيرًا من الجنود ينجون بأنفسهم من الجنون عن طريق تخيل أن ما يرونه لقطات فوتوغرافية غير حقيقية..

إنهم هناك.. مجموعة من الجنود المراهقين يدخلون أرضًا معادية وهم يغنون: ليفانون بوكرتوف (صباح الخير يا لبنان) في إشارة واضحة لحرب أمريكا في فيتنام، ثم يصيرون مذعورين لدرجة انفلات أعصاب كامل، حتى أنهم يعيشون داخل الدبابة ويطلقون الرصاص بغزارة في كل الاتجاهات طيلة الليل، ويسأله زميله وهو يطلق الرصاص:

-"على من نضرب ؟"

فيرد:

-"لا أعرف.. أطلق الرصاص وكفى.."

-"أليس من الأفضل أن نصلي ؟"

-"صل بسرعة ثم أطلق الرصاص! "

يمطرون سيارة مرسيدس بطلقاتهم حتى تتحول لمصفاة، ثم

يكتشفون أنه لم يكن فيها سوى أسرة كاملة. دبابة صديقه تنفجر وزملاؤه يموتون بينما يتوارى صديقه مذعورًا خلف صخرة.. ويراقب الفلسطينيين بينما أحدهم يتبول فوق جثة إسرائيلي ملقاة على الرمال.. هذا أول فلسطيني يقدمه الفيلم لنا. ويفر ذلك الجندي ليسبح ليلة كاملة في البحر المظلم الهائج إلى أن يبلغ زملاءه.

هناك مشهد للجنود يمشون في شارع في بيروت حيث يظفر بهم مجموعة من القناصة الفلسطينيين. واضح أن حرب لبنان الأولى لم تكن نزهة لهم كما نعتقد.. وسط الطلقات المنهمرة يحمل أحد الإسرائيليين المترليوز أو الـ MAG ويطلق الرصاص في جنون وشبه انتشاء وهو يتلوى، بينما صور الرئيس اللبناني بشير الجميل تملأ الخلفية، ويدوي لحن فالس يوحي لك بأنه يرقص.. هذا هو مصدر عنوان الفيلم، وبالطبع هنا خيط واضح من الفيلم الرائع (يرقص مع الذئاب).

ضائعون.. مذعورون.. فاقدو الهدف.. هكذا يقدم الفيلم الجنود الإسرائيليين، أكثر ما يسعدهم قضاء ليلة في قصر لبناني فاخر تركه سكانه، وقائدهم يقضي الليل في مشاهدة فيلم بورنو فاضح

على الفيديو وهو لا يصدر أمرًا سوى: "أسرع بتقديم الشريط.. أسرع بتقديم الشريط". ونعرف أن حبيبة المخرج تخلت عنه ليلة ذهابه للجبهة لذا ظل يتمنى أن يموت في الحرب كي يسبب لها عقدة ذنب دائمة!.

يصل الفيلم للمأساة.. لقد تم اغتيال بشير الجميل، وهو بالنسبة لحزب الكتائب شخص أسطوري.. رمز.. يقول صديق المخرج: "لقد كانوا يحبونه لدرجة التقديس.. . لا.. بل لدرجة الاشتهاء الجنسي!".. مات الجميل وقرر رجال الكتائب الانتقام من الفلسطينيين المتهم الأول باغتيال الرجل. هكذا يرينا الفيلم التواطؤ التام بين رجال الميليشيات المسلحين بقيادة السفاح (إيلي حبيقة)، وهم يدخلون المعسكر تحت حراسة إسرائيلية كاملة.. كل إسرائيلي يعرف تمامًا ما سيحدث، لكنهم يجلسون على الدبابات يراقبون ويطلقون طلقات مضيئة طيلة الليل لتكشف كل ركن في المعسكر. فقط من حين لآخر يتصلون بشارون ليخبروه أن مذبحة نازية تدور أمامهم، فيكرر وهو يلتهم طبقًا مليئًا بالبيض المقلي واللحم: "لقد أبلغتموني.. شكرًا".. ويضع السماعة.

يراقبون أسرة كاملة تقف ووجهها للجدار بينما مسلحان يفرغان الرصاص في أفرادها. يرون مسلحًا يقتاد عجوزًا إلى بيت ثم يسمعون طلقات ويخرج المسلح.. يسألونه عما يحدث فيشرح لهم بالإشارة أنه أفرغ رصاصتين في رأس العجوز لأنه رفض أن يسجد أمامه. يراقبه الجنود في لا مبالاة مع لمسة اشمئزاز بسيطة. السيارات تنقل الأسر الفلسطينية للاستاد ثم تعود خالية.. لا يحتاج المرء لذكاء كبير كي يعرف ما جرى لحمولة هذه السيارات.. ويتذكر المخرج نفسه في سن التاسعة عشرة وهو يعبئ القنابل المضيئة طول الليلة لينير للسفاحين أرض مذبحتهم..

استمرت المذبحة حتى الصباح، وفي النهاية جاء قائد إسرائيلي ملول ليطلب من الكتائب الرحيل بمكبر الصوت.. هكذا ينتهي كل شيء.. كل هذا كان يمكن أن يتوقف بعبارة واحدة تقال في مكبر صوت! . يقرر (فولمان) أن يدخل المعسكر ليرى الهول الذي صنعوه..

الجثث مكومة في كل مكان.. ارتفاعها يصل لكتفي الرجل الواقف.. جثث أطفال ونساء وشيوخ.. الرائحة لا توصف..

الذباب...

ثم نرى لقطات تسجيلية حقيقية التقطها الفرنسيون للنساء الصارخات المولولات يبحثن عن الزوج / الأخ / الابن / الأب وسط الجثث، مع العبارة الشهيرة: "وين العرب؟.. وين ؟"

وتظلم الشاشة ثم تتصاعد التترات.. إنه ليس كابوسًا نصحو منه ونتنهد بل هو الحقيقة المرعبة. لقد عرف فولمان لماذا فقد الذاكرة طيلة تلك السنوات. إنه اعتراف كامل بالصوت والصورة يقدمه للعالم، لعله يتخلص من ذلك الكابوس الذي لم يفارقه طيلة عشرين عامًا. أنت شجاع وموهوب يا فولمان لكن هذا لن يعيد لأطفال صبرا وشاتيلا – ومعهم ثلاثة آلاف شهيد – حياتهم.. لهذا لن نغفر لقومك أبدًا.

قرص مهدئ قبل المشاهدة.. *

يمكنك أن تكره الولايات المتحدة لكن ليس بوسعك تجاهلها.

تذكرت هذه الجملة التي قالها ناشر أمريكي كبير لمحمد حسنين هيكل وأنا سهران في تلك الليلة السوداء أنتظر أن يبدأ حفل الأوسكار، وسط زحام الإعلانات ومجموعة من الشباب التقت بهم القناة في مول مصري ما، يصرخون في الكاميرا: أووووه أوسكار!.. هكذا كل ثلاث دقائق كأن هذا أظرف شيء في العالم..

في الثانية صباحًا – ولما يبدأ شيء بعد – سألت نفسي بصراحة: ما جدوى هذا التعذيب؟.. لا أتوقع سوى نفس اللقطات

---

* حفل أوسكار العام 2009

والـدموع المفتعلـة والتظـاهر بالتـأثر والـ (ووه) والـ (واو).. وذات مجموعة الأوغاد النرجسيين الـتي أراهـا منـذ كنـت في الكليـة. لكـن المناسبة كانت أقوى مني.. أريد أن أعرف هل نـال العبقـري الراحـل (هيـث لـدجر) جـائزة الأوسـكار عـن أدائـه المـذهل في (الفـارس الأسود)؟.. وماذا عن أبطال (سلام دوج مليونير)؟.. كم جائزة سـوف يحـصدها الفـيلم الجميـل الممـل قلـيلاً (الحالـة الغريبـة لبنجـامين باتونز)؟.. أقنعت نفسي أنني يجب أن أعرف.. .

برغم هذا، يعد الأوسكار درسًا محكمًـا في الافتعـال والتـصنع وعدم التلقائية.. كل شيء مرسوم ومحدد مسبقاً، وقد راهنـت مجلـة (إمباير) البريطانية المفروسة مثلنا قراءها على تكرار هذه المشاهد في كل حفل أوسكار:

1- يُذكر اسم ممثل بريطاني فيصيح أحـدهم في مـرح: البريطانيون قادمون!

2- تثبـت الكـاميرا علـى وجـه جـاك نيكلـسون وهـو بالنظارة السوداء يـضحك ضحكته المفتعلـة الـتي تكـشر عـن أسـنانه كلها.

3- يطيل أحد الفائزين كلمته فتبدأ الموسيقا لتخرسه.

4- ينتهز أحد الفائزين الفرصة ليلقي خطبة سياسية ما ليس الوقت وقتها.

أذكر أوسكار عام 1993 الذي قدم في يوم حزين لأمريكا؛ لأن التلفزيون العراقي عرض يومها صورًا لجثث قتلى أمريكيين وعرض لقاءات مع الأسرى. هنا ظهر على المسرح ذلك الممثل (ادريان برودي) الذي يحمل وجه حصان، وألقى بعينين دامعتين كلمة عن السلام، وطلب من (هؤلاء القوم) المتوحشين في العراق أن يكفوا عن العنف.. صفق الناس ولم يسأل أحد: من هاجم من؟.. ومن قطع نصف الكرة الأرضية ليحتل بلد من؟.. هل كان العراقيون سيأسرون جنودكم لو ظلوا في الولايات المتحدة؟. ريتشارد جير كذلك ألقى خطبة عصماء عن احتلال الصين للتبت وطرد الدلاي لاما.. السبب طبعًا هو أنه بوذي.

عندما فاز الممثل الإيطالي (بانيني) عن فيلم (الحياة جميلة)، تذكر أنه ممثل كوميدي ويجب أن يكون ظريفًا، لذا راح يتواثب

كـالقرد فـوق المقاعـد إلى أن بلـغ المنـصة فقبـل صـوفيا لـورين وكلمهـا بالإيطالية. كل هذا جميل.. لكن مجلة إمباير تذدرت أنـه فعـل ذات الشيء حرفيًا وكرر ذات المشاهد من قبـل في مهرجـان كـان. كـل هـذا الانفعال تمثيل تدرب عليه مرارًا.

أما عن الفوز فقد قالت مجلة فرنسية شهيرة إن جـائزة أفـضل ممثل مضمونة لو كنت تقوم بدور تاريخي أو دور مـدمن مخـدرات في صراع مع إدمانه، وجائزة أفضل ممثلة مضمونة لو كنت تقومين بدور عـاهرة لهـا قلـب مـن ذهـب! . هنـاك قواعـد عديـدة.. مـثلاً أوسـكار المؤثرات الخاصة محجوز للملتحين.. جائزة أفضل فيلم مضمونة لكل من يصف عذاب طفل يهودي في معسكرات النازيين.

أما عن الضحكات فحدث بلا حرج.. ترى تلـك الممثلـة شـاردة الـذهن بوجههـا القاسـي الـشرير (يطـق الـشرر مـن عينهـا كأنهـا الشيطان) وفجأة تشعر بحاستها بأن الكاميرا علـى وجههـا، فتتـسع ضحكتها كاشفة عن صفين من اللآلئ في ضحكة مفتعلة بـاهرة.. هـذه هي أمريكا فعلاً..

أشعر كلما شاهدت احتفالات الأوسـكار أنهـا نـوع مـن فـرض

نمط الحياة الأمريكي على العالم. هكذا يمرح أسيادكم أيها البؤساء.. ها هو ذا عباس وحسين وسنتريسي يهللون فرحًا لأن (أنجلينا جولي) ظهرت.. ثم يتساءلون عن سبب عدم ظهورها مع براد بيت. يا ترى يا هل ترى؟.. هل بدأت بذور الشقاق بين الزوجين؟.. يبدو أن البنت جنيفر أنستون سرها باتع فعلاً..

هكذا تفرض أمريكا أولوياتها على العالم، وهي تعرف في فخر أن مواعيدها الشيطانية لا تناسب أيًا من شعوب الأرض لهذا جلس الكل في أوروبا وأفريقيا ساهرين. تذكرت كذلك زعماءهم عندما يزورون المنطقة العربية فيضبطون موعد الزيارة على أنسب وقت مشاهدة لدى المواطن الأمريكي، ولهذا مثلاً قد يزورنا مسئول أمريكي كبير في الثانية بعد منتصف الليل، كما أرغم الملك حسين رحمه الله على لقاء الرئيس الأمريكي عصرًا في الصحراء تحت القيظ؛ لأن الرئيس الأمريكي أراد أن يرى المواطن الأمريكي هذه المشاهد قبل ذهابه للعمل.

الحفل لم يبدأ بعد.. وكما يقول المترجمون عندنا: (ارتدى الرجال الفراك وكشفت النسوة عن نحورهن).. إنهم يقومون بعرض

أزياء على البساط الأحمر.. ربنا ياخدهم جميعًا.. تعـالوا نـتكلم عـن جائزة الأوسكار نفسها. الأمـر سـهل في وجـود الإنترنـت حيـث كـل شيء متاح. لكني سأرجع للكتاب الجميل (جوائز الأوسكار) لمحمود عبد الرحمن الزواوي (كتاب الهلال – 453) الذي كان يـساوي ثقلـه ذهبًا في ذلك الوقت من عام 1988، حيث كـان مـن المـستحيل أن تجـد كل هذه المعلومات في مكان واحد.

جائزة الأوسكار ليست الأكثر دلالة على قيمة العمـل الفنـي، لكنهـا الأشـهر والأكثـر إبهـارًا. طبعًـا الفـوز بالأوسـكار يترجـم إلى ارتفاع فلكي في إيرادات الفيلم وأجور ممثليه. عندما فـاز (طـار فـوق عش المجانين) بالجائزة عام 1975 وثبت إيراداته 50 مليـون دولار مـرة واحـدة.. هنـاك 32 منظمـة أمريكيـة تقـدم جـوائز للأعمـال السينمائية لكن القليل منها جدًا ينقل علـى شاشـات التلفـزة. ولـدت الفكرة عـام 1927 مـع تأسـيس الأكاديميـة الأمريكيـة لفنـون وعلـوم السينما – ومقرها بيفرلي هيلز بلوس أنجيلـيس – فـأقيم أول حفـل أوسكار عام 1929. لم يبدأ التلفزيـون تغطيـة الحفـل إلا عـام 1953. عنـدما ولـدت فكـرة تقـديم جـائزة للأعمـال الفـائزة، تم اقـتراح 12

جائزة، وطلب من شركات الانتاج تزويدها بقوائم عن أفلام العام.
تتم عملية الاقتراع السري بطقوس شبه بيزنطية، ولا يشارك الجميع في التصويت إلا في قائمة أفضل فيلم، فيما عدا هذا يصوت كل في مجال تخصصه. مجلس الإدارة الذي يصوت عدده ستة وثلاثون عضوًا. ثم ترسل الأصوات لمؤسسة محاسبة محايدة هي (برايس ووتر هاوس) التي تتولى العد. هناك اتهامات عديدة بالتلاعب في الأصوات، أغلبها وجه للويس ماير – بتاع شركة مترو جولدن ماير– مؤسس الأكاديمية. وهو السبب في عدم فوز جريتا جاربو بالجائزة أربع مرات، وهذا لصالح الممثلة نورما شيرر زوجة مدير الإنتاج في شركته.

أما عن التمثال نفسه فهو خليط من النحاس والقصدير ومطلي بالذهب. فارس يقف بسيفه فوق بكرة فيلم تمثل الفروع الخمسة للأكاديمية (تمثيل – كتابة – إخراج – إنتاج – تقنية). وهو من تصميم (سيدريك جونز) ونحته المثال (جورج ستانلي). شركة دودج تروفي تصنع 60 تمثالاً كل سنة ثمن التمثال الواحد 200 دولار، وبعد ما يوزع على الفائزين يجمع منهم ثانية لنقش الاسم على

قاعدته.. أما عن اسم أوسكار نفسه فلم تضعه الأكاديمية، والرواية الأرجح هي أن أمينة مكتبة الأكاديمية صاحت عندما رأت التمثال أنه يذكرها بعمها أوسكار.. هكذا شاع هذا الاسم.

الكتاب ممتع وبه معلومات مثيرة مما يغريني بأن أعرضه عليك في مقال آخر، لكن حتى ذلك الحين اسمح لي بأن أتابع هذا الحفل الكريه المستفز، فأنا غير قادر على تركه!

ملحوظة مهمة جدًا: كتبت السطور السابقة قبل ظهور (أنجلينا جولي) مع (براد بيت) فعلا.. واضح أنهما سعيدان كذلك.. الحمد لله.. كدت أموت قلقًا.. !

اعترافات

كنت في سيارة أحد أصدقائي، عندما قال لي وهو يدس قرصًا مدمجًا في مشغل الأقراص:

ـ"اسمع هذا.."

ومن السماعات تعالى صوت (أبو الليف) – الذي لم أكن أعرف أنه كذلك – يقول: "دولا مجانين.. ".. الخ.. ظللت أصغي بعض الوقت فلم يبد لي رديئًا.. اللحن رشيق والكلمات ساحرة وذكية فعلاً. لم أكن أعرف وقتها أنها من تأليف شاعر موهوب مثل (أيمن بهجت قمر). ليس عملاً سيمفونيًا عظيم القيمة، وبالتأكيد لا يهدد عرش عبد الحليم حافظ أو حتى تامر حسني، لكن في النهاية تنطبق عليه كلمات (هاني شاكر) عن (عدوية): " ليس مطربًا بالضبط.. إنه

مونولوجست من نوع خاص جدًا". هاني شاكر مثقف وكلماته محسوبة بالجرام، وقد ظللت أذكر هذا التعبير على مدى ثلاثين عامًا.

بعد هذا بدأت حملة لطم الخدود التقليدية.. لقد بدأ زمن أبي الليف بعد زمن شعبان عبد الرحيم.. هاوية أخرى تسقط فيها الطبقة الوسطى التي قررت أن تدخن البانجو وتتمرغ في الطين. الطبقة الوسطى تعاقب نفسها على ما صارت إليه بمزيد من الابتذال؛ لذا راحت ترحب بأبي الليف وسواه، مثل الفتاة التي فقدت شرفها فراحت تدهن وجهها بالوحل. بصراحة لم أر الأمر بهذا السوء ولا هذه الرداءة، بل إنني كذلك وجدت أن هذه الكلمات الرشيقة الذكية قد تضيف شيئًا لآذان الشباب. على الأقل هي أقل خطرًا من (بوس الواوا) و(الصراحة راحة وانت ما بتعرفش).. حيث التلميحات الجنسية هي اسم اللعبة ولا شيء سواها. لكني لم أجرؤ قط على الإعلان عن هذا.. المجتمع يحتم أن تكون مصدومًا مشمئزًا وإلا فأنت لست كما ظننا بك.

من ضمن الأشياء التي لم أجسر قط على الاعتراف بها أن

الفنان (سمير غانم) قادر على أن يضحكني في أي وقت بمجرد أن يبدي بعض الاشمئناط أو يرفع حاجب السخرية إياه. قديمًا قال الساخر محمود السعدني إن سمير غانم يفتقر إلى العمق الإنساني، وإن زميله جورج سيدهم هو الممثل الكوميدي الذي يحاول إضحاك طفل فإذا فشل جلس يبكي جواره، بينما سمير غانم يحاول إضحاك الطفل فإذا فشل هز كتفيه وانصرف. هذا صحيح إلى حد كبير، ولا أعتقد أن الرجل وجد نصًا واحدًا جيدًا في حياته، لكنه برغم هذا يملك قدرة هائلة على الإضحاك.. إضحاكي أنا على الأقل.. الرجل ظريف وكفى..

أما الاعتراف الأشد إذلالاً للمرء، فهو أنني أحب اللمبي. لا أعني الفنان محمد سعد على إطلاقه، ولا أطيق أيًا من سلسلة أفلامه التي تلوى فيها وعوى وشد شعره وتحول لمئة شخصية كي يضحكنا فلم ينجح (كقاعدة: يتناسب ظرف الفنان عكسيًا مع الجهد الذي يبذله للإضحاك). أنت تحتاج إلى الكثير جدًا من الكولا كي تبتلع كركر أو كتكوت أو بوحة أو كل هذا الهراء الذي قضى على الممثل الموهوب قضاءً شبه مبرم. لكني هنا أتحدث عن اللمبي.. شخصية

الشاب المقيم في العشوائيات والذي لم يجد طريقة واحدة شريفة لكسب الرزق، والذي يبدو أن العالم كله قد خرج للظفر به، فغاب في مستنقع المخدرات. كان هناك لمبي حقيقي في أعماق كاتب السيناريو والحوار، وكان هناك لمبي حقيقي في أعماق محمد سعد سمحا له بالخروج، فدبت فيه الحياة. صار هو ذلك الشاب الذي تراه في كل مكان. تذكرت كلمات د. وليد سيف الرائعة (سلسلة آفاق السينما – 29) إذ قال: "اللمبي موجود فعلاً يا سادة.. . إنكم ترونه لكن تشيحون بوجوهكم كي لا تروه.. أنتم تغلقون زجاج نوافذ سياراتكم عندما يقبل نحوكم ليبيع الفل.. تتركون خدمكم يتعاملون معه عندما يعرض بضاعته في حقيبة يجول بها في عز الحر.. اللمبي في كل مكان.. يمكن رسم خريطة وجوده على العاصمة لنجد أنه يمثل نسبة كبرى من شباب العشوائيات. اللمبي يلقي بعقب سيجارته في وجوهكم ساخرًا من مشاريعكم العملاقة وفنونكم التي لا يفهمها.. .... مشكلة اللمبي انه لم يكذب بما يكفي.. ولم يكن مبتذلاً بما يكفي. لا ينكر أحد أن أفلام الموجة الجديدة لا تلجأ لما عرفناه من قبل من عري فاضح وقبلات ساخنة محشورة وحوار مليء

بالتلميحات الجنسية. إن اللمبيين قادمون شئنا أم أبينا". هناك كلمات مماثلة كتبتها الأستاذة صافيناز كاظم. كانت شخصية اللمبي حقيقية جدًا متقنة جدًا ابتلعت محمد سعد نفسه، كما كادت شخصية بوند تبتلع شون كونري، وكادت شخصية دراكيولا تبتلع كرستوفر لي؛ لهذا فشل محمد سعد تمامًا عندما ابتعد عنها لأنه لم يشعر بالشخصيات الأخرى بنفس القدر، وأعتقد أنه سيكتشف مع الوقت أنها لابد أن تعود للحياة؛ لأنه – للأسف – لم يعد له وجود من دونها.

هناك عشرات من الاعترافات المماثلة عن أشياء لا ينبغي أن أحبها..

على الجانب الآخر هناك أمور يجب أن أعترف أنني لم أستطع أن أحبها قط. مثلاً أغنية (من غير ليه) آخر أغنيات الراحل العظيم عبد الوهاب. في فترة من الفترات صارت هذه الأغنية خاتمًا للمثقف، وكتب مفيد فوزي مرة قائلاً: "حان الوقت لننظف آذاننا مع من غير ليه" وكتب مرة أخرى: "تصوروا أن البعض لا يحب أغنية من غير ليه ؟؟؟!!" مع مئة علامة استفهام وتعجب. مع هذا

القمع الفني لا يمكنك أن تقول إنك ترى الأغنية مفتعلة وسخيفة. هناك افتعال لحيرة ميتافيزيقية لا داعي لها (جايين الدنيا ما نعرف ليه) وهناك تحذلق في التوزيع.. طبعًا هي أرقى من (أبو الليف) لكنك تعطي الأخير مزية التلقائية.

هناك ذلك الاعتراف المروع الذي قدمه (عادل حموده) في التسعينات، عندما اعترف أمام الكاميرا أنه لا يحب أم كلثوم فقامت الدنيا ولم تقعد. قال إننا نتمسك بقواعد مقدسة لا نتنازل عنها، وإن المذيعة تقابل سائق سيارة فتسأله عمن يفضل في الغناء.. تكون الإجابة المحفوظة هي: "طبعًا الست"، بينما في جهاز كاسيت السيارة يوجد شريط لعدوية. هكذا يصل بنا الأمر إلى أننا لا نعرف غالبًا ما نحبه حقًا.

الفنانة فردوس عبد الحميد ممثلة قديرة بلا شك، لكني لم أستطع قط ابتلاع الطريقة التي يظهرونها بها في المسلسلات كجان دارك.. قيمة غير بشرية تطل على الخطاة وتصدر أحكامها، تواجه الكاميرا بعينين ثابتتين ولا تكف عن إلقاء القيم والمواعظ طيلة الوقت. لو كنت تذكر مسلسلات (صيام صيام) أو (أنا وانت وبابا) فأنت تعرف

ما أعنيه. دعك من أن صوتها الغنائي سيئ في رأيي الخاص. بينما كانت فعلاً في أفضل حالاتها في دور بسيط مثل (نفيسة) الوريثة المثقفة الساذجة التي لا تعرف شيئًا عن العالم.. هكذا عرفناها على الشاشة أول مرة. لكنك لا تجسر على الاعتراف بهذا لأن المثقفين ينظرون لك في ذهول.. هل حقًا تجرؤ على ألا تحبها؟..

لقد انتهيت من هذه الاعترافات المروعة وغيرها كثير.. أعرف أنك قد صدمتك وأنني دخلت قائمتك السوداء، لكن المرء لا يستطيع أن يستمر في الادعاء وهو في هذه السن. لي صديق يدنو من الخمسين اكتشف فجأة أنه يعشق مونولوجات إسماعيل يس، ويحتفظ بعدد هائل منها كأنها سيمفونيات.. صارحته برأيي في هذا السلوك المعيب، فقال: هناك لحظة يجب على المرء فيها أن يترك نفسه تحب وتكره ما تريد، حتى لو كان سبيله لهذا أن يعلن عن إعجابه بأبي الليف!

مثل الجذمور بالضبط

ما هو الأدب ؟

كنت أعتبره نشاطًا بشريًا يبعث النشوة والصفاء في النفس ويزيد من فهمك للكون وتذوقك للجمال، وهذا النشاط مغروس في الفطرة البشرية، وإلا فلماذا يحتشد بدائيو أستراليا أو رجال قبيلة الكيكويو حول الراوي ليلاً ليصغوا بعيون متسعة إلى قصصه الساحرة؟.. لماذا التف العرب حول أصحاب المعلقات في سوق عكاظ، ولماذا أنشد الفلاح البريطاني الساذج المصاب بالتيفوس تلك البالادات؟. ثمة حاجة لدى البشر تفوق المأكل والمشرب والجنس هي الحاجة إلى الفنون الجميلة، وإشباع حاجات المأكل والمشرب والجنس لا يكفي لوأد هذه الحاجة.

كنت أحسب هذا الأمر بديهيًا لكن الأمور تزداد تعقيدًا يومًا بعد يوم، بحيث لم أعد أعرف بالفعل ما هو الأدب.

* * *

جلست ليلاً أكتب بعض الشعر المنثور، فكتبت هذه الكلمات:

حزين أنا متفرد في كآبتي واغترابي

قصدت الليل أسأله عن لغز الدمع إذ يتجمد في الأحداق

قال الليل: الدمع طلسم مقدس..

لا تسل دموعي التي أذرفها مع الندى في الصباح..

فلتسأل الأيك..

ذهبت إلى الأيك أسأله عن ضريح الهمسات

فقال الأيك: أنا مغرم بعشق عمره مليون عام..

فلتقصد الشلال تسأله فهو بالعشاق أعلم..

ذهبت إلى الشلال أسأله عن مثوى قصص الحب الصريعة بنصال النهار..

قال لى : وقعت في غرام جدول.. ذبت فيه وذاب في..

فلتسأل العاصفة..

*ذهبت للعاصفة............*الخ.. .

راق لى ما كتبت جدًا.. يبدو لى كأنه تلك القصيدة التى لم يكتبها طاغور. جو كونى رقيق يبدو أعمق مما هو فعلاً. نمت راضيًا عن نفسى، على أن استكمل القصيدة غدًا، ثم صحوت في الصباح وأعدت قراءة القصيدة...

ما هذا الهباب ؟... هذه لعبة سهلة جدًا مكشوفة جدًا وقريبة من الأسطورة الصينية الشهيرة: ذهب للبحر وقال له هل أنت أقوى ؟ فقال بل الريح أقوى لأنها تعبث بى.. ذهب للريح وسألها هل أنت أقوى ؟؟.. قالت بل الإنسان أقوى لأنه يحتوينى في رئتيه.. . الخ..

بل هي كذلك تذكرك بقصة الأطفال المتعة التي حكتها لنا أبلة منيرة في مدرسة الإصلاح الابتدائية، عن الفأر الذي قطع القط ذيله.. القط يريد لبنًا ليعيد الذيل. اللبن عند البقرة.. البقرة تريد

برسيمًا.. البرسيم عند الفلاح.. الفلاح يريد خبزًا.. .. الخ..

لعبة سهلة جدًا ويمكن أن أكتب لك مائة سطر من هذا الهراء.. ربما لو كنت مدمنًا للحشيش وحصلت على تموين كاف منه لكتبت مائتي سطر..

إن الأدب فن شديد التعقيد والمراوغة بالفعل.. من السهل أن تخدع المتلقى ليعتقد أنك أعمق مما تبدو عليه، ولعل الفن الوحيد الذي أفلت من هذه الدائرة هو الموسيقا.. فقط في الموسيقا ينكشف ضحل الموهبة على الفور. الرسم؟.. بالطبع لا.. تذكر أن لوحات فاروق حسني تباع بالملايين وهى عبارة عن لطخ من اللون الأصفر جوار الأحمر والأزرق، حتى قيل إنه صار وزيرًا كى يكتشف الناس كم أن لوحاته رائعة..

* * *

أما عن الأدب الأنثوي فقضية أخرى ليس هنا مجال الثرثرة فيها. الأدب جيد ورديء ولا أعرف طريقة أخرى للتقسيم. لكن المرأة ابتكرت الأدب الأنثوي وهو تلك الكارثة التي تتوقف في حلقك كلما قرأت لكاتبة أنثى. الكاتبات اللاتي نسين أنهن إناث وكتبن أدبًا

إنسانيًا خالصًا فتح الله عليهن، واقتربن من القمة.. اقرأ لرضوى عاشور أو إيزابيل اللندي أو حتى ج. ك. راولنج وستيفاني مايرز ولسوف تتقطع أنفاسك انبهارًا. لكن كثيرات ظللن في ذلك الخندق العميق : كراهية الرجل.. الفكر الذكري المسيطر على التاريخ وربما الدين.. التمرد على القبيلة.. عار الأنوثة.. .. الخ..

بصراحة هذا الجو قد بلي تمامًا منذ الستينات عندما كانت فرنسواز ساجان هي قشدة الطبق، ومع الوقت صار خارج الزمن والواقع وعليهن أن يبحثن عن صيغة جديدة.

وتتأمل عناوين رواياتهن أو دواوينهن فتجد في كل سطر لفظة الجسد.. جسدي.. أجساد.. مش معقول!.. لو فكرت بشيء من الهدوء لأدركت أنهن لا يفكرن سوى في الجنس ولا ينوين الخروج من خندقه اللزج، برغم أنهن لا يكففن عن اتهام الرجل بأنه كذلك.

حضرت ذات مرة ندوة وقفت فيها شاعرة شابة تلبس بلوزة تكشف عن نصف صدرها مع سروال ضيق لو لم يكن ملونًا لحسبته غير موجود، وكانت ملطخة بالماكياج كالهنود الحمر، هستيرية تمامًا وتصرخ بعصبية :

-"الرجل مصر على أن يعتبر المرأة وليمة في فراش! "

نظرت للجالسين وأقسمت لنفسي أن هذا العرض الرائع جعلهم جميعًا يفكرون في موضوع الفراش هذا وقد بدأ يروق لهم. طيب.. هل يجب أن يكون الرجال بلا هرمونات كي ينالوا رضاك؟.. ولماذا لبست بهذه الطريقة؟.. أم هو نوع من الامتحان لهم لتري إن كانوا رجال كهف أم لا ؟

أنت قدمت نفسك كأنثى لا كعقل.. وبالتالي لا تلومي من يتعامل معك كذلك. وقد علمتني الخبرة أن هذا النوع من الأديبات اللاتي لا يفكرن إلا في الجنس، يقابلن دومًا الرجل الذكي الذي يتظاهر بالفهم والرقي وبأنه يختلف عن كهنة القبيلة، إلى أن يظفر بما يريد.. بعدها يتخلى عنها لأنها هستيرية مملة، وتعود هي لدائرة الغضب واحتقار الرجل وتكتب أكثر..

* * *

المشكلة الأخرى في رأيي هي النقاد.. إنهم علماء نبات وخبراء في تشريح الزهرة واستخراج الطلع والأسدية وتقطيع الساق إلى شرائح رقيقة تحت المجهر، لكن لا أحد يتحدث عن جمال

الزهرة أو عطرها، والنتيجة هي أن أحدًا لم يعد يلاحظ إن كانت الزهرة في النهاية جميلة أم لا..

يكفي أن تكتب كلامًا غير مفهوم يوحي بالعمق وتبحث عن ناقد يصف ما كتبته بأنه (إرهاصات هي إفراز للكوزموبوليتانية، تعمد إلى تفتيت النص إلى وحدات تعكس روح ما بعد الحداثة)، فقد تم تعميدك وصرت أديبًا.. هل تكتب كلامًا جميلاً يبعث النشوة في النفس أو يدفع للتفكير ؟... هل يفهمك من يقرأ لك؟.. لا أحد يذكر ذلك..

تأمل هذا الكلام الذي يزف لنا صدور ديوان شعر لشاعرة مغربية.. والله العظيم لم أعبث بكلمة واحدة سوى حذف ما قد يشير لاسم الشاعرة: "تكمن قوة هذا الديوان وجِدَّته في اشتغاله بلغة جذمورية بكر تُوسع أفق الوجود، وتسرد مكنونه بأشكال سردية شبيهة بالألياف الملتوية على سِرِّ المعنى... فلغة الشاعرة ـ الحاملة للتغير والمنسكبةُ في ألياف سردية ـ لا تسيرُ وفق نظام هندسي مُحْكَمٍ ومغلق ومتكامل، بل هي صورة العالم نفسه الذي لا تنتهي غرائبه، مثلها مثل الجذمور...... وهذا ما يجعلها لغة ماكرة تتخفًى

دلالاتها تحت أقنعة شتى، فالحقيقة لدى الشاعرة ؛ لا تقاس بالتشييدات الرمزية لها، وإنما بالقياس إلى الوجود، والوجود سرديٌّ في أكثر تفاصيله. من ثمة كان السرد في كل نصوص ديوانها هذا علامة فارقة مزهرة في منطقة المجاز، لأنه يقدم رؤية ذاتية وفكرية وتخييلية للشاعرة، تمارسُ التوتر الحادث بين اللغة والخيال"

طبعًا.. هؤلاء سادة مثقفون لا يجب أن يقولوا كلامًا مفهومًا. ربما كان كلام الناقد متحذلقًا وكانت الشاعرة مبدعة فعلاً.. تعال نطالع بعض قصائدها خاصة تلك التي اختارتها لتضعها على الغلاف الخلفي للديوان باعتبارها درة الديوان وعروسه:

"مَرَّتْ بي وَ أَنَا أَهُمُّ بِالصَّلَاةِ

فِي أَلْيَافِ الْمَاءِ...

صَحْوَتُهَا قَدَحٌ يَكْتُبُنِي

شَهْوَةً لِفِتْنَةِ اللَّيْلِ.

كَانَ خِصْرُهَا جَدْوَلًا يَسْتَنْفِرُ الْأَحْزَانَ

وَ صَدْرُهَا نَخْلَةً تَسْقُطُ بَيْنَ مَدَائِنِ الْوَطَنِ.

أُتَّكَأْتُ علَى لَغْوِهَا

أَتَأَمَّلُ خَمْرَتَهَا الْمُنْسَابَةِ مِنْ وَثَنِيَّةِ الْهَوَى.

هَبَطْتُ فِي أَغْوَارِ الْإِشَارَاتِ

قَالَـتِ - "اُقْتَربِـي" وَ قَهْقَهَـتْ كَغَانِيَـةٍ أَسْكَرَتْهَا هَمَسَاتُ الْعُشَّاقِ! !.

لا تقل إن بوسعك كتابة هذا الكلام بإصبع قدمك.. ليس الأمر بهذه السهولة ومهما حاولت لن تنجح، لأنك تحتفظ ببعض الصدق والحساسية. والله العظيم هؤلاء القوم عباقرة فعلاً.. عباقرة عندما قرءوا، وعباقرة عندما نقدوا، وعباقرة عندما كتبوا هذا الكلام الذي لا أستطيع كتابة ثلاثة أسطر منه.

ماذا قدمه ديوان كهذا للناس وللمجتمع ولحركة الفكر؟.. المزيد من التحذلق والادعاء لا أكثر. وكما يقول د. جلال أمين، فإن هناك رجال دين مزيفين يزعمون اتصالهم بالإله لتحقيق مكاسب دنيوية، وهناك أدباء مزيفون يزعمون اتصالهم بربات الفنون

لتحقيق مكاسب أخرى. الإله يقول نعم.. الإله يقول لا.. تذكر أن ساحر القبيلة لم يكن يجيد الصيد ولا القنص ولا الزراعة ولا القتال.. لا يستطيع عمل وعاء من خزف ولا يستطيع الإمساك بثور أو العناية بالماشية.. هكذا يقرر أن يصير سيد الصيادين والمحاربين والمربين والخزافين.. إنه على اتصال بالآلهة ويعرف كل الأسرار..

* * *

أحيانًا يتم الاحتفاء الحماسي بأديب شاب يتحسس طريقه في عالم الأدب، وهذه علامة صحية بلا شك. أذكر ندوة أقيمت في مصر لأديبة خليجية شابة، حضرها أنيس منصور ونخبة من النقاد والأدباء المهمين، والفتاة في السابعة عشرة من عمرها تكتب كلامًا فارغًا كالذي تكتبه أية طالبة ثانوي في آخر كراساتها، حتى توقعت أن أجد بين أشعارها (الذكرى ناقوس يدق في عالم النسيان) أو (الخط خطي ودمعي يسيل على خدي)، لكن هذا الرأي المتعصب لم يكن رأي السادة الذين حضروا الندوة، والذين تحدثوا عن ثورة جديدة في الأدب، وكيف أن كتاباتها ذكرتهم بماريا الأديبة الروسية العبقرية الشابة (لم يقولوا إنها ماتت في سنها منعًا للتفويل!).

قال لي أحد أصدقائي مازحًا: لو إنك أديب واعد من قرية (خارصيت) مركز الغربية، تدون أعمالك بالقلم الرصاص في كراسة مدرسية عتيقة من التي كتب على غلافها الأخير (كنظام)، ولديك بيجامة كستور مخططة.. فهل تتوقع أن يهتم بك أحد أو يقرأ لك حرفًا؟.. ولماذا يصعب أن تقام هذه الضجة على كتابات أديبة قبيحة أو فقيرة إلا فيما ندر؟.. أترك لك الإجابة، ونعود إلى موضوع الجذمور..

سألني بعض الأصدقاء عن معنى (الجذمور) فقلت لهم إن الجذمور هو (الرايزومات) لو كنت تذكر حصة الزراعة أو حصة الأحياء، وهي ساق النبات الأفقية تحت الأرض التي تنمو منها عقد وسوق جديدة.. هناك نظرية نقدية كبرى هي نظرية الجذمور، وبرغم هذا ما زال الموضوع يحتاج إلى عبقري ليفهم معنى هذا الكلام.

قال د. علاء الأسواني في حوار سابق، إنه كلما أقبل الناس على كاتب ما استفز هذا الأدباء الآخرين الذين اعتادوا الجلوس على المقاهي ولوم جهل الجماهير، فهذا يزلزل الحقائق ويحرمهم لذة الاستشهاد. لذة الشعور بأنهم نحتوا القوافي من مقاطعها فلم تفهم

البقر.

في عصور ضعف الأدب ينتصر الغموض، وتكـون هنـاك خلطـة قوية الرائحة تخفي أن الطعام فيه لحم فاسد أو لا لحم على الإطـلاق. أضف لهذه الخلطة الكثير من التحذلق والغمـوض والتعـالي والقـرف والاشمئزاز من سطحية القراء، ولسوف تعبر.. تعبر إلى المقهى الذي يجلس فيه الأدباء المشمئزون.. جنة الميعاد.

قرأت لأحد الأدباء مقالاً ينعي فيه عصر الجهل الـذي نعيـشه نتيجـة الارتـداد بالروايـة مـرة أخـرى إلى عـصر الحدوتـة، ولاقـت جماهيرية جعلت البعض يتصورون أن هذا انتصار للخفة. وهـذا هـو مقياسهم الذي لا يحيدون عنه: الرواية الـتي تـروق للنـاس وتجـدها في يد الجميع عمل سطحي فاشل.. مصيبة لو كانت الرواية مسلية أو جعلت القارئ يتساءل عما سيحدث بعد ذلك. لابد أن تكـون الروايـة عذابًا مقيمًا مستحيل الفهم وإلا فهي فاشلة، ومهمة الأديب المقدسـة هي أن يصل بالقارئ لحالة من العجز التام عـن فهـم مـا يقـرأ. طبعًـا ليس الرواج دليلاً علـى شـيء وإلا لكـان شـعبان عبـد الـرحيم أنجـح مطربي مصر، لكن هناك حلولاً وسـطًا، وأنـا لم أر عمـلاً ممـلاً عـسير

الفهم ليوسف إدريس أو نجيب محفوظ أو تشيكوف أو الغيطاني أو إبراهيم عبد المجيد أو المنسي قنديل أو المخزنجي. وماذا عن يعقوبيان التي وقفت وقفة راسخة بين ما هو عميق ومحكم أدبيًا وما هو ممتع للجمهور؟.. في أوساط المثقفين المتحذلقين يعتبر إبداء الإعجاب بيعقوبيان نوعًا من الكفر الصريح..

هذا الجدل قائم منذ دهور، والغلبة في النهاية لما هو مفهوم وجميل. وكلنا يعرف محاولات فورستر الجاهدة لتحويل فن الرواية إلى تعذيب للقارئ، لدرجة أنه اعتبر فن الحكي من بقايا عادات إنسان الكهف الهمجية، بينما ماركيز العظيم نفسه قال إنه لا يشتهي شيئًا مثل أن يجد نفسه مجرد راو عربي يجلس في الأسواق ويلتف حوله الناس منتظرين قصصه الممتعة، فلو لم تكن كذلك لمات جوعًا.

لكن كاتبنا الجميل يهوي بسياطه على المجتمع السطحي التافه الذي سيطرت عليه الخرافة ولم يعد يحترم حرية الفرد و.. و.... ويعدنا بأن نقرأ ذات الرأي بشكل معقد غير مفهوم في رواياته!.

المشكلة مع هؤلاء الأدباء هي أنهم دومًا عباقرة يكتبون

لأبقار، فمن هو الرديء فيهم إذن وكيف نعرفه؟.. هناك واحد – سامحه الله – قال يومًا إن الأبطال يقذفون بالحجارة بينما الورود للموتى، ومن يمش في المقدمة يطعن في ظهره.. الخ. هذه المقولة أفادت الجميع وصارت شعارهم. إذن لن يعرف معدوم الموهبة أنه كذلك أبدًا.. إنه بطل في زمن أشباه الرجال لا أكثر.. لو فشل العمل الأدبي فبسبب مناخ السطحية، وهذا يقود لاستنتاج عجيب هو أنه لا يوجد عمل أدبي سيئ أبدًا!..

هكذا يذهب الأديب لمقاهي وسط البلد متداعية الجدران ويدخن الشيشة وربما الحشيش، ويشتم الناشر النصاب الذي يزعم أنه لم يبع سوى طبعة واحدة بينما هو حتمًا باع تسعًا.. ومن حين لآخر يقع في يده عمل لأديب من أصدقائه فيقول:

-"حقيقي ده حد جميل.. "

هذه هي طريقة كلام وسط البلد، وعليك أن تتعلمها لو أردت أن تكون شيئًا..

يمكنني أن أعرف مسار حياة معظم هؤلاء الأدباء بوضوح تام: ثلاث روايات أخرى ومجموعة قصص قصيرة.. عدة ندوات وثلاثة

لقاءات تلفزيونية، وربما بعض المقالات عن (النزعة الابستمولوجية في أدب كولنز) ومشاجرة أو مشاجرتين على شبكة الإنترنت في موقع لابد أن اسمه (انطلاقة) أو (إبداع)، ثم تتلاشى الفقاقيع، وتبقى كتبه على الرفوف وفي مخازن هيئة قصور الثقافة حيث هي، ولن يذكره أحد لو اختفى عامًا واحدًا عن المحافل التي يحرص طبعًا على الظهور فيها، وما نسميه نحن سكان خارصيت بـ (مجتمع الحديقة الخلفية لأتيليه القاهرة). ثم يموت يومًا فلا يلاحظ أحد، ويكتب أحد أصدقائه يلوم وزارة الثقافة لأنها لم تكرم هذا الأديب المهم. قرأت مقالاً لروائي شهير يشيد فيه برواية صديق له، ثم قرأت مقالاً يشيد فيه الصديق برواية لذلك الروائي الشهير. هكذا تسير الأمور في هذا المجتمع المنغلق على نفسه: سوف نقرأ ونناقش ما يكتبه بعضنا لبعضنا ونعجب به ونحضر حفلات توقيع وندوات بعضنا ونحتقر القراء والكتاب المفهومين الناجحين، والعيب ليس في القارئ، بل فيمن انتزعوا الأدب من حياة الناس ليضعوه على أعلى رف في المكتبة كما فعل (إليوت) بالشعر. وبفضله – يقول النقاد الغربيون عن إليوت – صار الناس يخافون الشعر ويكرهونه بعد ما

كان سلوى حياتهم ومتعتهم.

* * *

وبعد..

ما هو الأدب ؟

أعترف بأنني ضائع ولم أعد أتبين طريقي وسط هذا الضباب، برغم أن الطريق كان واضحًا تمامًا منذ عشرين عامًا..

لكنني من حين لآخر أعود ليوسف إدريس ومحفوظ وتشيكوف ودستويفسكي وسومرست موم وديكنز ويحيى حقي وصلاح عبد الصبور وأمل دنقل لأسترجع تلك الجذوة المقدسة، ولأعرف معالم الطريق الذي يوشك على أن يضيع، بنفس المنطق الذي تبحث به عن العلامات البيضاء في وسط الطريق لتتقي (الشبورة). سأكتب ما يروق لي وأدعو الله أن يروق للقارئ، وليقل من يشاء ما يشاء، حتى لو بحثوا في كتاباتي عن الجذمور فلم يجدوه.. لقد وجد الأدب قبل الجذمور ومن الواضح أنه سيبقى من بعده!

إبداع حتى النخاع

هذه معركة شرسة لا تعترف بالواقفين بين الفريقين، فأنت إما معنا أو ضدنا.. إما أن تقف مع الفريق الذي يمنع ويتحفظ ويتهم فتصير محاربًا لحرية الإبداع وأحد دعاة الظلام، وإما أن تقف مع الفريق الذي يناضل من أجل حرية الإبداع فتصير مخلب الغرب وأداته لهدم قيمنا.

الواقع أنني شبعت كثيرًا من المتربصين، واصطدمت معهم أكثر من مرة حتى فاض بي فعلاً. التفتيش في الضمائر ممتع ولذيذ جدًا ويشعرنا بأننا قضاة نصدر الأحكام من فوق عرش عال.. عذبوا هذا فهو هرطيق.. احرقوا هذه فهي على اتصال بالشيطان. أنا القاضي الأعلى لمحكمة التفتيش أدعو (كوبرنيكوس) إلى أن يتوب

قبل أن نطهره بالنار.. إنها لذة تفوق أية لـذة أخـرى. وهكـذا يـضيق هامش الحرية كل يوم.. إنهم يراقبونك في شك ومستعدون للعنك لـو قلت كلمة مريبة. حتى علـى مـستوى كبـار الـدعاة.. قـرأت في أحـد مواقع الإنترنت مقالاً للمفكر الإسلامي الكبير (محمد عمارة) يضرب فيه مثالاً لغويًا لا أكثر، فانبرت إحدى القارئـات تـسأله في عـصبية عن عقيدتـه.. قائلة: هلم أفصح!.. حتى (محمد عمارة) نفسه مطالب بالدفاع عن نفسه وإثبات أنه ليس كما تظنين؟.. كـل شـخص مـشتبه فيه وكل شخص يمكن أن يصير متهمًا في أية لحظة..

أعترف بحالة الحصار هذه وكتبت عنها كثيرًا، لكني كـذلك أعترف بأن هناك حالة عامة من الانفلات بدعوى الإبداع.. صـار مـن المحتم أن يُقال كل شيء وبأعنف شـكل ممكـن، وإلا فأنـت متخلـف وتدافع عن قوى الرجعية، وتفوح منك رائحة الـنفط الخليجـي. منـذ فترة طويلة لم أقرأ كتابًا جديدًا خاليًا من لفظة أو لفظتين مما اعتـدنا سماعــه في الــسوق وموقــف عبــود. هنــاك خلطــة محكمــة معروفــة مقاديرها ولا تفشل أبدًا وينفذونها بدقة شديدة: غـضب — تجـديف

واستهانة بالدين – جنس – يأس — حشيش - محارم.. هذه الرواية لابد أن تغضب الجميع وتشتهر.. وحبذا لو منعها الأزهر فهذا يوم سعد المؤلف.. سوف تنعقد من أجله الندوات ويصير موضوع العدد لعدة مجلات أدبية. فقط ينسون شيئًا مهمًا في هذه الخلطة وهو ضروري لابتلاعها: الموهبة.. .. الفن.. .

إقرأ هذا المقطع على لسان فتاة يرغمها أبوها على حفظ القرآن، وقد قمت بحذف ما يلزم طبعًا: "مع كل لسعة كرباج تنظر لي أمي بغيظ وكره قائلة: خلصي يا بت.. يقطعك ويقطع تعليمك. وحياة أمي لـ (...) يا (...) يا بنت الـ (...). وأبي يواصل الضرب بهمة على أنف أمي حتى تجيب دم ويقول لي: شايفة يا (...)؟.. وصلتي أمك الكاملة أم أخلاق سوبر إسلامية لإيه؟.. اتبسطتي؟.. طيب (....) أمك.. أنت وأمك على (...).. مش حتنامي إلا لما تسمعيه عشر مرات.. إيه رأيك يا بنت الـ (...) ؟"

هذا هو أكثر مقطع مهذب استطعت اختياره، وهذه الرواية ناجحة جدًا على شبكة الإنترنت على فكرة، والجميع يتساءل عن

سبب إحجام الناشرين الجبناء عن نشرها.. إنها قضية الفكر أمام ظلام الجهل وخفافيش الظلام.. هل يجب أن أقاتل من أجل الحق في نشر هذا الكلام ليقرأه ابني؟.. يا أخي لو كان هذا هو الأدب فلا داعي له أصلاً..

شاهدت على موقع (يوتيوب) فيلمًا قصيرًا لمخرج من خريجي معهد السينما أصابني بالذهول، وكالعادة يتخذ الموضوع طابع قضية فكر أمام خفافيش الظلام. الفيلم يدور حول عاملة سنترال تقزقز اللب طيلة الوقت، ولا تقول جملة واحدة من دون سبة جنسية يعاقب عليها القانون.. تراقب الزبائن وتدرك نفاقهم؛ بين الزوجة المسيحية التي تخون زوجها مع صديقه، والمنتقبة التي تضرب مواعيد لزبائن الدعارة من الكابينة.. عمل كهذا في رأيي ينبع من رغبة أصيلة لدى صانعه أن يشعر بأنه ليس بهذا السوء.. كل الناس منحلون منافقون.. من لم يزن هو شخص لم يجد فرصة بعد.. أحد أصدقائي رأى الفيلم فقال ساخرًا: الفائدة الوحيدة التي يقدمها هذا الفيلم للمجتمع هي اغتصاب عاملات السنترال لأن كلامهن (أبيح)، و الإيمان المطلق بحق المواطن فى تحويل كابينة التليفون إلى حجرة

نوم .آخر ما يمكن أن يحدث – عقب مشاهدة فيلم كهذا – هو أن يخرج الناس من دور العرض وقد تطهروا. فلابد أن برجمان وسير ديفيد لين كانا ينافقان العقلية البرجوازية بكل هذا التهذيب والرقي المصطنعين إذن ..

أحيانًا يخيل لي أنه كان من الأسهل والأبلغ أن يصور المخرج قطعة فضلات بشرية جوار جدار لمدة نصف ساعة.. مهما قال وفعل فلن يعبر بهذه البلاغة أبدًا. نفس الشيء ينطبق على سيل الأفلام الحديثة التي تدعي الواقعية الجديدة.. يخيل لي أنها تجميع لصفحات الحوادث في الصحف. هؤلاء لا يتعاطفون مع البؤس والانحلال الأخلاقي بل يتاجرون به ليستمتع المشاهد بكل هذه البشاعة، كأن هذا بيت الزواحف في حديقة الحيوان..ثعبان الأصلة؟.. سحلية الورل؟.. يا مامي..!

لو كانوا صادقين وفنانين فعلاً فليروا ما فعله محمد خان في (أحلام هند وكاميليا) أو دان بويل في (مليونير العشوائيات) و(مراقبة القطارات) أو حتى حسام الدين مصطفى في (الباطنية).

هذه الخواطر تعذبني وتشعرني بالذنب لأنني لست في صف

حرية الإبداع المطلقة بالكامل.. إذن أنا مثقف منافق يا شبيهي يا أخي على رأي الخواجة (بودلير).. ثم تذكرت أن لي رافدين فكريين مهمين هما محمد حسنين هيكل ود. جلال أمين.. ماذا يقولان عن هذا؟.. أولاً هيكل لا يطيق لفظة (إبداع) أصلاً ويشم فيها رائحة الإدعاء. ثانيًا هو كتب مقالاً دسمًا مهمًا عن قضية (وليمة لأعشاب البحر) الشهيرة جدًا. رأى هيكل أن الحملة ضد الرواية كانت متعسفة وتحريضية حقًا وتوحي بـ (افتعال الانفعال) – تعبير أدبي آخر من تعبيراته الجميلة. ثم رأى أن الدفاع عن الرواية استدعى للميدان قيمًا عظيمة مثل الحق والحرية والاستنارة في غير مجالها أصلاً. وهكذا تورط المثقفون في معركة وجدوا أنفسهم فيها – كما تبدى للجمهور – ضد الدين والفضيلة، وهكذا خسروا المعركة قبل أن تبدأ. دعوى الحرية لن تُسمع لأن المواطن العادي سيجدها تساهلا وتفريطًا. دعك من النغمة الدائمة لدى المثقفين: العمل الأدبي لا يمكن فهمه إلا بوساطة متذوق فني..!.. هذا معناه أن المثقف يرفض كهنوت رجل الدين لكنه يقبل ويطالب بكهنوت الناقد!.. هناك حجة أخرى تقضي بأن بعض العبارات المقتطفة مجتزأة من السياق

ويجب قراءة العمل الأدبي ككل قبل التعليق. يقول هيكل إن هذه الحيلة ليست ناجحة دائمًا.. فمعظم المثقفين لم يقرأ رسائل أخوان الصفا أو أعمال أفلاطون كاملة. حتى كتاب (رأس المال) قلّ من قرأه كاملاً. إذن أحيانًا قد يعبّر الجزء عن الكل. د. جلال أمين كتب كذلك عن رواية (الصقار) التي أحدثت ضجة مماثلة، فقال بوضوح: "حرية الفرد في الكتابة يجب أن تكون لها حدود مثل حرية الفرد في إطلاق الرصاص على الناس". لكن ما ضايقه فعلاً خلو الرواية من أية قيمة فنية من أي نوع.. والكاتب يغطي على هذا الفقر بالتمادي الصريح في وصف المشاهد الجنسية. يقول كذلك: "هناك قطاع عريض من المثقفين دأب على الدفاع عن أعمال غثة فكريًا، تهين المقدسات الدينية وتجرح الشعور العام باسم حرية الإبداع وحرية التعبير".

د. جلال يجد في هذا الموقف بدوره إرهابًا من نوع آخر.. فهم يستعدون الدولة على معارضيهم ويطلبون التأييد والدعم الأجنبيين.. بل إنهم يبعدون عن الأضواء مبدعين حقيقيين كل ذنبهم أنهم لم يجرحوا أحدًا في كتاباتهم .

* * *

من العجيب أن محمد المويلحي في (عيسى بن هشام) يقول بالحرف: "من تأمل قليلاً وجد أن الشرح والإسهاب في خفايا الرذائل التي يندر حدوثها ويقل وقوعها كان من الأسباب في انتشارها"

المويلحي ليس من دعاة الرجعية والانغلاق، وليس بالتأكيد من خفافيش الظلام، لكنه رجل ذو حس سليم وبصيرة نافذة. في السبعينات قرأت قصة احتلت صفحتين من مجلة (الإذاعة والتلفزيون) لقاص يصف في اشتهاء ثديي أمه ، ليس باعتبارهما رمزًا للخصوبة والعطاء.. الخ.. بل لأنهما ببساطة يثيرانه. كنت مراهقاً في المدرسة الإعدادية لكني تساءلت عن القيمة الأدبية العظمى التي قدمتها هذه القصة، وما كانت البشرية ستخسره لو لم تُنشر أو لم تُكتب..

ثم وجدت الجواب الصحيح في مقال لناقد كبير – نسيت اسمه للأسف – نشر في مجلة الهلال. قال إن الأديب يمكن أن يتعامل مع الجنس.. بل يجب أن يتعامل معه باعتباره جزءًا حميمًا من مكونات حياتنا، ولكن عليه وهو يفعل ذلك أن يمتلك قدرًا من النظرة الفوقية والموهبة تسمحان له بأن يتعالى على عقده الشخصية

ورغباته المكبوتة.. بمعنى آخر: لا يكتب ما يتحلب لعابه لـه أو مـا يثيره هو شخصيًا.. طوفان الأعمال (الإبداعية) الذي غرقنا فيـه منـذ أعوام، عاجزين عن الاعتراض حتى لا نـتهم بـالتخلف والرجعيـة.. هذا الطوفان هـو طوفـان عقـد نفـسية وصـديد بـلا شـك.. لا أعتقـد أن الصديد سائل مفيد للفكر أو يعبر عن حرية صحية.. إنـه يلـوث كـل شيء يلمسه، وإن كان خروجه يريح صاحبه قليلاً...

و ما زلنا مع ذلك المقال المهم لـدكتور (جـلال أمـين) الـذي يناقش فيه رواية (الصقار). يقول د. جلال: "هؤلاء المدافعون في كـل مرة عن حرية الإبداع والذين يتحمسون لحرية التعبير لهـذا الحـد، لابد أنهم يلاحظون ما تفعله الدولة في تقييد هذه الحريـة. فـإذا قبـل المفكر عن طيب خاطر ما تفعله الدولة في تقييـد هـذه الحريـة، وثـار ثورة عارمة على محاولة كاتب أن يقيد حرية كاتب تجاوز الحـدود، فلابد أن يكون للمرء الشك في أن الموقف ليس طاهرًا مائة بالمائة"

عندما يتكلم د. جلال أمين يكون علي أن أخرس وأنقل لك مـا قاله. يرى د. جلال أن منع كتب (نـصر حامـد أبـو زيـد) مـثلاً خطـأ لأنها كتب تحوي آراء وبالتالي يجـب أن تنـاقش، بينمـا إذا شـتمك

أحدهم في الشارع فهذا ليس اختلافًا في الرأي بل هو وقاحة يجب منعها. يقول إن رواية الصقار هذه صدمته بكل ما فيها من جنس فاحش، وألفاظ بذيئة تُقال عن القرآن الكريم، لدرجة أنها استفزت كاتبًا يساريًا في جريدة الأهالي واستفزته هو في جريدة الدستور. هنا هبت حملة الدفاع عنها وقال د.صبري حافظ أستاذ النقد الأدبي: "انتقاد الرواية ليس من حق صحفي لا دراية له بأساليب قراءة الأعمال الأدبية، لأن العمل الفني ينهض على الجدل المستمر بين جزئياته المنتقاة بعناية من كم هائل من المادة المبذولة للكاتب". كلام كبير صعب طبعًا، لكنه من جديد يطرح قضية أن فهم العمل الأدبي كهنوت مقصور على كهنة المعبد من النقاد، فلماذا تشكون من كهنوت رجل الدين إذن؟.

ثم يعرض علينا هذه الفقرة من الرواية: "الطريقة العادية نفسها التي يمكن أن يصبح بها أي أحد.. أي أحد وحيدًا في حجرته العلوية تمامًا كموت الآخرين. لا يموتون هكذا مرة واحدة ولا يتركون لنا أشياءهم الحقيرة إلا لأنها ليست مهمة في الموت". يطالبنا د. جلال بأن نعترف: هل يوجد أي جمال أو معنى في هذه الفقرة

؟... لكن د. صبري يقول عنها: "محاولة واضحة لبلورة ترداديـة وتكرارية يتذبذب فيها السرد بين عوالم متنافرة ولكنها متضافرة بطريقتها الفريدة". هنا يفقد د. جلال هدوءه المعروف ويكتب كأنه يصيح: هل هذه قصة أم كتاب مقدس؟.. هل أية قصة كتبها شخص هب ودب تُعامل هذه المعاملة، وكأنها عمل مقدس لا يجوز حذف جملة أو اقتطافها من سياقها وإلا حلت بنا اللعنة؟. لو كان هذا أدبًا فكل راقصة في شارع الهرم تستحق لقب فنانة.

من الطريف كذلك أن نجد أن د. جلال يغتاظ جدًا من لفظتي (إبداع) و(خلق) هاتين، وهو نفس شعور هيكل. وقد لاحظ أن الكتاب يعشقون هاتين اللفظتين كثيرًا. مهما كان مستوى العمل الأدبي.. كأن كتابة قصة أو رواية مهما كانت رديئة تؤهلك لحمل لقب (مبدع). فقط انصرفوا لحالكم ودعوا هؤلاء المبدعين العظام يستمتعون بالهدوء اللازم لعملية الخلق.

ليس من حق الناس أن تعرف كل شيء، وليس من حقهم أن يُكشف عن كل مخبوء ويرفع الغطاء عن كل جسد.. هناك ألف طريقة لعرض الشر.. كما يعرف كل أبوين أن الطريقة المثلى لإقناع ابنهما

بعدم التدخين ليست هي أن تحضر له سيجارة وتجعله يدخنها. يرى د. جلال كذلك أن هناك موقفًا حاليًا من الفن يقترب من التقديس.. ومن فرط الخشوع والرهبة يوشك أن يكون دينيًا.. وكما أن الدين شهد نصابين كثيرين يدعون التقوى والشفافية لينالوا أغراضهم، فهناك في الفن نصابون كذلك يدعون الموهبة الفنية وأنهم على اتصال بربات الفنون.. ثم ينهي مقاله الساخن قائلاً: " ليست مسيرة التاريخ دائمًا للأفضل.. ولا أشك في أن التراجع في هذه القضية بالذات هو شيء حكيم للغاية"

أشعر باطمئنان كلما قرأت هذا المقال لأنه يجعلني أدرك أنني لست مثقفًا منافقًا، فهناك مثقفون عظماء كان رأيهم قريبًا من رأيي الحالي.. ليست الكتابة عن الجنس هي المشكلة.. المشكلة هي الفحش فيه، وهي كتابته للتلذذ الشخصي أو لجذب القارئ أو لاستثارة غضب المحافظين..

لا أحد يطالب بالمنع واستخدام سلطة الدولة مع الأدب، لكننا كذلك نطالب بأن يكون أدبًا حقًا. المحتوى الأدبي العالي هو الذي جعلنا نتقبل تلك الجرعات الصادمة في ألف ليلة وليلة وأشعار

شعراء المجون وكتاب الأغاني.. وبرغم هذه الجرعات الصادمة فإنها لم تبلغ ربع ما نراه اليوم. هناك قصة على شبكة الإنترنت لا أجسر على ذكر اسمها وحده، فكيف بمضمونها؟.. وكما نتوقع هي خالية من الفن تمامًا لكن صاحبها وأصحاب الموقع يصرون على أنها (إبداع)..

نحن لا نطالب بأن يجلس الأديب إلى مكتبه عازمًا على أن يكتب عملاً نظيفًا مفعمًا بالقيم.. ستكون النتيجة في غاية السوء شبيهة بالمسلسلات التي يكتبها الفنانون لأنفسهم في رمضان، لكننا كذلك نطالب بألا يجلس الأديب عازمًا على كتابة عمل فاضح مليء بالجنس والكفر والشتائم وجلسات الحشيش والعبث وزنا المحارم. الحلم هو أن يكون الأديب هو الرقيب الوحيد على ما يكتبه، وأن يدرك جيدًا أنه يجلس في مقعد محترم جدًا جلس فيه من قبله تشيكوف ودستويفسكي ويحيى حقي ويوسف إدريس ونجيب محفوظ ومحمود تيمور وتشارلز ديكنز ومارسيل بروست وفلوبير و.. و.. هؤلاء كتبوا عن الضعف البشري والشهوات والإلحاد.. لكن كيف كتبوا ؟

القسم الرابع

ويحوي تأملات..

لا تخضع لأي تصنيفات

ديجا فو

أذكر القارئ بأن (ديجا فو déjà vu) هو تعبير فرنسي معناه (شوهد بالفعل). وهو يستخدم للدلالة على تلك المواقف التي تمر فيها بحدث معين، فتشعر بأنك عشته من قبل.. هناك تفسير فسيولوجي محبط يقضي بأن الأمر يعود لتأخر وصول الدم لأحد الفصين الصدغيين في المخ عن الآخر، وهذا يضايق الناس لأنهم يحبون أن يشعروا بأنهم مرهفون شفافون ذوو قدرات غيبية، وليسوا مجرد أشخاص لا تعمل دورتهم المخية جيدًا.. هم أكبر من هذا..

أنا أعاني حالة عنيفة من ظاهرة (ديجا فو)، لكن المشكلة هي أنني عشت هذا فعلاً وجربته وتعذبت به ألف مرة.. حتى إنني أقترح مصطلحًا جديدًا هو (ديجا فيكو déjà vécu) أي (عيش

بالفعل)...

مثلاً أحداث غزة.. لقد عشت هذا الموقف مرارًا لا حصر لها من قبل. هناك تفاصيل حدثت حرفيًا عند بدء الانتفاضة الثانية وعند اجتياح مخيم جنين.. نفس المظاهرات الغاضبة في العالم العربي وأوروبا، ونفس لا مبالاة الحكام وإيثارهم السلامة وقمعهم المظاهرات بقوات تكفي وحدها لتحرير فلسطين.. نفس الكلمات المؤثرة المقنعة فعلاً في الأمم المتحدة ثم يتداولون فيرفع مندوب الولايات المتحدة يده بالفيتو ضد قرار الإدانة.. يقدم الفيتو وهو لا مبال وقرفان ومشغول بأمور أهم. الرئيس الأمريكي يؤكد أن لإسرائيل الحق في الدفاع عن نفسها.. دعوة لمؤتمر قمة عربي لا ينعقد أبدًا كأن الاجتماع وأكل الفنادق والنوم في (فور سيزونس) جهد شاق لا يتحمله أحد.. نفس الاتهامات لمصر حتى بلغ الأمر درجة حرق العلم المصري في الانتفاضة الثانية. نفس معركة (مصر خائنة متخاذلة – مصر قدمت الكثير من أجلكم يا ناكري الجميل)..

ذات جثث الأطفال المكفنة.. ذات القبلة الأخيرة على الجبين قبل القبر يطبعها أب باك.. انا متأكد من أن هذه الطفلة ماتت من

قبـل في جـنين وفي اجتيـاح جنـوب لبنـان عـام 2006.. ذات اللـثم يتوعد إسرائيل أمام الكاميرا.. ذات الكلمات البـاردة تقولهـا مـادلين أولبرايت ثم رايس ثم ليفني.. هناك دومًا امرأة شمطاء متنمرة (مش لاقية راجل يلمها).. نفس المتحدثين في قناة الجزيرة، ومن يؤكـد أن العـدو ارتكـب غلطـة عمـره، ومـن يؤكـد أن المقاومـة ارتكبـت غلطـة عمرها.. الأول يتهم الثاني بأنه عميل ومن المارينز الجـدد، والثـاني يتهم الأول بالحنجورية والعيش في عصر المعلقات..

ذات القلـق واللوعـة في أعماقـك.. ذات الأمـل الخافـت في أن يتغير مسار المعركة.. معـارك أم القصر في العـراق وذعـر الأمريكـان والاستجواب لرامسفيلد في الكونجرس: هل أخذتنا إلى فيتنام أخـرى يـا أحمـق؟.. البارجـة الإسـرائيلية تحـترق أمـام شـواطئ بـيروت.. حماس تعد بمزيد من المفاجآت.. ثم ينقشع الضباب فتكتشف أن كـل شيء قد ضاع كما في العراق، أو تكتشف أن حزب الله كـان أذكـى ممـا تصورنا كما في حرب 2006.. . لم يتضح الأمر مع حماس بعد.. .

لماذا يتكرر كل شيء؟.. لأننا ما زلنا نحن.. ولأنهـم مـا زالـوا هم.. لم يتغير أي طرف..

تعال معي نبتعد عن غزة قليلاً.. تعال إلى شارع الهرم لتعيش تجربة أخرى رأيتها ألف مرة.. شقة مفروشة إيجارها ألفا جنيه في الشهر.. أربعة أجهزة كمبيوتر.. برنامج جرافيكس.. شباب من خريجي كلية الفنون الجميلة، وخمس دقائق من الرسوم المتحركة تظهر (علي بابا) أو (جحا) وهو يلوح بيده ويقول كلامًا لا تسمعه لأن الصوت لم يُضف بعد.. مخرج متحمس ينوي صناعة حلقة Pilot لتسويق هذا الفيلم في دبي.. ثم لا نرى أي شيء أبدًا، وتختفي هذه الشركة ويختفي هؤلاء الشباب.. ديجا فو.. اعتقد أنني زرت ذات الشقة مائة مرة.. فقط كانت الوجوه تختلف في كل مرة..

بنفس الظروف تقريبًا رأيت مئة مجلة أو جريدة شبابية تصدر وتموت بعد عددين.. نفس الوجوه.. نفس الأفكار.. نفس الكلمات.. مثقفو وسط البلد بالقلنسوة الصوفية أو (الأنوراك) على طريقة (إيمينم) والجربندية والجينز، يكتبون لعدة أماكن لابد أن من بينها الدستور وبص وطل.. بعضهم معد في إحدى القنوات الفضائية.. بطلهم العالمي هو جيفارا وبطلهم المحلي هو منير وأحمد فؤاد نجم. الجلسة في مقاهي وسط البلد وتدخين الشيشة في نهم

والنكات البذيئة والثورة على كل شيء.. عالم المدونات ونقابة الصحفيين والفشل في الحصول على كارنيه.. بعضهم يكتب الرواية الأولى التي لا يستطيع نشرها والتي يتباين موضوعها لكن الحشيش يلعب فيها دورًا مهمًا جدًا.. هناك خلطة محكمة معروفة مقاديرها ولا تفشل أبدًا: ثورة – تجديف – جنس - يأس – حشيش.. تتغير الأسماء لكن الوجوه والثياب والأفكار هي هي..

كم مرة جلست فيها مع ذلك المخرج الشاب المتحمس الذي درس بالخارج، والذي يريد أن يقدم أول أفلامه معي؟.. أقول له إنه لابد أن يجد منتجًا قبل أن يبدأ، فيؤكد في ثقة إنه يعرف ما يفعله.. معه سوف تختلف الأمور. كم مرة طورنا فيها فكرة ما وكتبنا لها معالجات، وكتبنا السيناريو؟.. ثم تبدأ المراحل التي أعرفها جيدًا.. ملاحقته لي لأن الوقت ضيق.. ثم الفتور.. ليس العثور على منتج سهلاً.. ثم قلة الحماسة.. فالاختفاء.. ثم عدم الرد على مكالماتي.. للمرة الألف تعرف أن المنتج هو كل شيء بينما المخرج (غلبان مثلنا) لا يملك من أمره شيئًا..

خذ عندك كذلك فرق مسارح الأقاليم والثقافة الجماهيرية..

المخرج المتحمس الذي يريد أن يقدم نصًا شهيرًا، لكنه يضحك في خبث لأنه سيدس فيه رموزًا وإسقاطات لا تنتهي.. سوف يشتم الحكومة دون أن تدرك ذلك.. يشعر بأنه يقود ثورة.. المصري هو ابن البلد أو القهوجي ومصر هي الفلاحة الأصيلة.. الحاكم الظالم هو العمدة أو صاحب العمارة أو الغول.. لا بأس بأغنية للشيخ إمام هنا أو تقليد ساخر خبيث للحاكم هناك، أو أن يهتف الناس في مسرحية (ماكبث): بالروح.. بالدم.. نفديك يا ماكبث.. هذا إسقاط جبار.. إسقاط عبقري.. الثورة قادمة..

البروفات والصراخ المجنون في الممثلين، والمسرح المترب والخيش الذي يتدلى من السقف.. نفس الميزانسين.. الممثل الذي يجري من عمق الكواليس إلى منتصف المسرح ليصرخ منفعلاً أكثر من اللازم، فلا تفهم حرفًا مما يقول، ثم يسقط على ركبتيه ليصفق الناس.. الأصوات المبحوحة من الصراخ. رأيت هذا ألف مرة، وفي النهاية ترى المسرحية وقد جلس في القاعة المخبرون ورجال الأمن المركزي الذين هم الجمهور الوحيد، والذين اكتسبوا ثقافة مسرحية جديرة بأستاذ في السوربون.. تنتهي المسرحية فلا تحدث ثورة ولا

يذكرها أحد..

أمثلة الديجا فو كثيرة جدًا.. جدًا.. ولو أحصيت الأمثلة لاحتجت إلى عشرين مقالاً آخر. لا أعرف السبب فعلاً.. هل الحياة تكرر نفسها بهذا الشكل الممل ؟ أم أنني عشت أكثر من اللازم ؟

انتهى المقال، ومن جديد يغمرني الشك بأنني قلت هذا الكلام من قبل في مكان ما..!.. هل يمكنك أن تذكّرني من فضلك ؟

أنا لم أتغير.. الحياة تغيرت

هناك ناقدة أمريكية كانت تحب فيلم (ذهب مع الريح) وشاهدته عشرات المرات. فجأة شاهدته عندما تقدمت في العمر.. أثار دهشتها أنها لم تنفعل وبدا لها سخيفًا مفتعلاً، وكتبت تقول: "الفيلم تغير!.. لم يعد نفس الفيلم الذي كنت أشاهده قديمًا! "

هذا هو السؤال الأبدي الذي يطاردك عندما تكون في سني: هل الحياة قد ساءت حقًا أم أنني لم أعد كما كنت ؟

في صباي كنت أسمع أبي لا يكف عن استعادة ذكريات صباه.. كانت الدجاجة بحجم الخروف والخروف بحجم ديناصور ترايسيراتوبس، وكانت للأزهار رائحة حقيقية.. زهرة واحدة كانت تغمر بالشذى حيًا كاملاً من أحياء دمنهور -- حيث ولد - دعك من

الفراولة والتفاح.. كان يمكنك أن تعرف أن هناك من ابتاع نصف كيلو تفاح أو فراولة في دمنهور كلها لأن الرائحة تتسرب لكل شيء.. كانت الأغاني أعذب والفتيات أجمل والأفلام أمتع والبشر أنقى.. .

كنت أستمع – أو أسمع – لهذا الكلام في تأدب، وإن كنت أنقل قدمي مائة مرة في ملل أخفيه. وقد بدا لي خيطًا لا ينتهي من كلام الشيوخ المعتاد: "هي الفراخ بتاعتكم دي فراخ؟.. دي عصافير.. كنا بنشتري عربية وفيلا ودستة بيض بنص ريال.. الخ"

حدثني أبي عن أفلام عصره وعن إيرول فلين المذهل وجيمس كاجني العبقري و..و.. على الأقل صار بوسعي اليوم أن أرى هذه الأفلام كدليل لا يدحض، فلا أرى فيها أي شيء خارق.. التخشب الهوليوودي المعتاد والكثير من الافتعال.

نقبت عن نقاء الناس في ذلك العصر، فقرأت عن (ريا وسكينة) النقيتين، والبواب النقي الذي اغتصب طفلة في الثالثة من عمرها عام 1933، والفنانة النقية التي ضبطت زوجها النقي مع الخادمة النقية في المطبخ ليلة الدخلة! وماذا عن الفنان النقي (فلان) الذي اقتحم مكتب الناقد الذي لم يرق له فيلمه الأخير شاهرًا

مسدسه؟. كان هناك حي دعارة نقي شهير جدًا في طنطا اسمه (الخبيزة) واليوم صار سوقًا شعبية محترمة.. فأين هذا النقاء المفقود إذن ؟

لكن أبي يرحمه الله عاش ومات وهو مؤمن بأن الحياة قد صارت سيئة، كأنها صورة صنعت منها نسخة تلو نسخة تلو نسخة حتى بهتت ولم تعد لها قيمة..

اليوم أنظر أنا بدوري إلى الوراء فيبدو لي أن الحياة كانت أفضل في صباي بكثير. قلت لابني إن الأغاني في عصري كانت أعذب والفتيات أجمل والأفلام أمتع والبشر أنقى.. . أرغمته على مشاهدة بعض أفلام السبعينات على غرار (الأب الروحي) و(قصة حب) فشاهدها وقال لي بصراحة إنها (زي الزفت). أغاني البيتلز والآبا والبي جيز (خنيقة) جدًا في رأيه.. ولم يحب أية أغنية من أغاني وردة الجزائرية الحارقة في أوائل السبعينات مثل (حكايتي مع الزمان) و(اسمعوني)... طبعًا لم أحاول أن اسمعه أم كلثوم فأنا لست مجنونًا.. لن يفهمها ولو بعد مائة عام..

قلت له في غيظ إنه بعد عشرين سنة — أعطاه الله العمر —

سوف يسمع ابنه أغاني (شاجي) و(انريكي اجلسياس) و(فيرجي) ويعرض عليه أفلام (الرجال اكس) و(الفارس الأسود).. لكن الوغد الصغير سيؤكد له إنها (زبالة)، إلا أن ابني لم يصدق.. يعتقد أن الأخ (شاجي) خالد للأبد..

نعم كان لرمضان رائحة وحضور في الماضي.. كانت هناك رائحة مميزة للعيد.. تصور أن عيد الثورة كانت له رائحة؟.. كان قدوم الربيع يعلن عن نفسه مع ألف هرمون وهرمون يتفتح في مسامك، فتواجه مشكلة لعينة في التركيز في دروسك والامتحان على الأبواب، بينما الحياة ذاتها قد تحولت إلى فتاة رائعة الحسن تنتظرك. أذكر يوم شم النسيم وأنا في الصف الثالث الإعدادي، أمشي في شوارع طنطا التي ما زالت خالية في ساعة مبكرة، مزهوًا بنفسي أوشك على أن أطير في الهواء، وأتمنى لو عببت الكون كله في رئتي.. بينما المحلات تذيع أغنية حفل الربيع التي غناها عبد الحليم حافظ أمس (قارئة الفنجان).. تصور أن الأغنية ما زالت طازجة ساخنة خرجت من حنجرة الرجل منذ ساعات لا أكثر. للمرة الأولى أسمع (بحياتك يا ولدي امرأة.. عيناها سبحان المعبود)..

أنا شاب.. لقد كبرت.. لن تتغير هذه الحقيقة.. الغد أفضل بمراحل.. الكون كله ينتظرني.. سوف أصير أمين عام الأمم المتحدة وأتزوج راكيل ويلش وأفوز بجائزة نوبل في الأدب، وفي وقت فراغي سأمارس هوايتي في إجراء جراحات الجهاز العصبي.. هذا قد يضمن لي جائزة نوبل أخرى.. من يدري؟.. قد أصير أول رائد فضاء عربي (بالمرة)، ولسوف أصير وسيمًا أشقر الشعر أزرق العينين.. لا أدري كيف.. يجب أن تكون في الخامسة عشرة لتفهم..

نعم.. لم يعد شيء في العالم كما كان.. أبتاع الفراولة وألصق ثمارها بأنفي وأشم بعنف.. لا شيء.. لو حشرت ثمرة منها في رئتي فلن أجد لها رائحة. ماذا عن التفاح الذي لا تقتنع بأنه ليس من البلاستيك إلا عندما تقضم منه قطعة ؟..عندها تحتاج لفترة أخرى كي تقتنع أنك لم تقضم قطعة من الباذنجان.. أين ذهب جمال الفتيات ولماذا لم أعد أرى إلا المساحيق الكثيفة، حتى تشعر أن كل فتاة رسمت على وجهها وجهًا آخر يروق لها؟.. أين ذهبت العواطف الحارقة القديمة عندما كنت تكتب عشرات القصائد من أجل ابتسامة حبيبتك؟.. اليوم لو تزوجتها وأنجبت منها عشرين

طفلاً فلن تجد في هذا ما يأتي بالإلهام...

الإجابة التي تروق للمسنين هي: الحياة تغيرت ولم تعد هناك بركة.. لكن الإجابة الأقرب للمنطق هي: الحياة لم تتغير.. أنت تغيرت.. .

ربما صار شمي أضعف.. ربما صار بصري أوهن.. ربما صار قلبي أغلظ.. ربما تدهورت هرموناتي.. ربما صرت كهلاً ضيق الخلق عاجزًا عن أن يجد الجمال في شيء.. ربما ما زالت الفتيات جميلات والفراولة عطرة الرائحة وأغاني هذا الجيل جميلة..

نعم هو المنطق ومن النضج أن أعترف بهذا.. لكن من قال لك إنني أريد أن أكون كذلك؟.. أفضل أن أظل شابًا على أن أكون ناضجًا لهذا أقول لك بكل صراحة: الحياة صارت سيئة ولا تطاق فعلاً.. الله يكون في عونكم.. هيا أيامكم دي أيام ؟

ملاك حساس.. يا للكارثة!!..

كلما تلقيت مكالمة من (سلمى) عرفت ما سوف تقوله على الفور.. لابد من العبارة التالية:

"آه يا ربي.. أنا مرهفة رقيقة وسط كون لا يفهمني.. لا أحد يفهم كم أنت حساس رقيق.. "

هذه نقطة مهمة لدى هذه النوعية من الفتيات: الكون ينقسم إلى من لا يفهمون، وهؤلاء الذين لم تلقهم بعد.. . الذين لم تلقهم بعد ينتظرون دورهم كي يصيروا ممن لا يفهمون..

-"الصداع يوشك أن يقتلني"

الصداع وآلام المعدة جزء من أسلوب حياة هاته الفتيات.. من خبرتي الطبية أعرف أنهن يصبن بالصداع قبل أن يعرفن أن لديهن

رأسًا..

تمشي معي سلمى في الشارع فيجري وراءنا ذلك الطفل الحافي ممزق الثياب ويطلب منها بعض المال، فتشخط فيه وتحمر عينها حتى ليوشك الشرر أن يخرج منها.. ثم تواصل كلامها معي:

ـ" الناس قد تغيرت والنفوس لم تعد كما كانت. لي صديقة كنت أحبها وتحبني ثم تغيرت ونقلت عني كلامًا كاذبًا لواحدة أخرى، وهذه الأخرى كانت قد نقلت عني كلامًا لواحدة أخرى غير الواحدة الثانية.. قالت عني كلامًا سيئًا لكنه وصلني عن طريق صديق"

نقف على باب كافتيريا، هنا نرى قطة صغيرة تموء من الجوع ويبدو أن سيارة يقودها وغد ما قد هشمت ساقها الأمامية.. تقول (سلمى) وهي تفتح باب المطعم:

ـ"أنا أحب القطط الصغيرة لأنني مرهفة الحس.. . كنت أحكي لك عن صديقتي.. لا أعرف كيف سمح لها ضميرها بذلك، ولا كيف استباحته لنفسها. قطعت علاقتي بها لكن الجرح ما زال ينزف..."

نجلس إلى مائدة في الكافتيريا وأطلب الساقي.. نرفع رأسينا للتلفزيون المعلق هناك والذي يعرض مشاهد من نشرات الأخبار. هناك من يبكون ويصرخون والدم ينزف من جراحهم في حرب غزة.. ثم تنتقل الكاميرا إلى ضحايا حادث قطار ممزقين في روسيا.. ثم نرى مشاهد من اضطرابات كينيا.. يقول التقرير إن القتل والاغتصاب في كل مكان هناك..

أطلب من الساقي أن يحول القناة.. لو كنا قد جئنا هنا كي نتعذب فمن الأسهل أن نفعل ذلك مجانًا في بيوتنا، لكن سلمى تواصل الكلام وهي ترمق الشاشة:

ـ"لقد تخلى عني أعز إنسان عندي وهو من وثقت به جدًا، فنقل عني كلامًا محرفًا لطرف ثالث لا يهمك أن تعرفه.. وما أندهش له هو كون النفوس تتغير من لحظة لأخرى.. "

ثم بدأ الدمع يتجمد في عينيها.. وهمست:

ـ"مشكلتي هي أنهم لا يعرفون كم أنا حساسة.. أبي لا يفهم هذا.. أخي لا يفهم هذا.. أنت لا تفهم هذا.. "

عندما خرجنا أخيرًا بعد نصف ساعة كان رأسي يرتج من

الداخل من فرط ما سمعتـه، وشعرت بأنـه يـزن طـنين وأن سـاقي لا تتحملان وزن رأسي..

كانت القطة الصغيرة الجائعـة تنتظرنـا علـى البـاب فركلتهـا (سلمى) ركلة قوية بطرف حذائها لتبعدها وقالت:

ـ"أنا أحب القطط والأطفال فعـلاً.. أحيانًـا أشـعر بـأنني مـلاك مرهف جاء من عالم آخر إلى هـذا العـالم الـذي يعـج بالـشياطين.. ألا ترى هذا معي ؟"

(هذا المقطع من قـصة قديمـة لـي ولا علاقـة لـه بـالواقع علـى فكرة!)

* * *

ثمة مقولة لأوسكار وايلد على لسان بطـل مـن أبطـال قصصه: "الإنسان الحساس هو الـشخص الـذي لأنـه يـشعر بـألم في قدمـه، لا يكف عن وطء أقدام الآخرين". كالعادة هذا الرجل عبقـري. لقد قـدر لي الحظ أن أتعامل مع عدد هائل مـن الحـساسين في حيـاتى، وكنـت أعتـبر نفـسى مـنهم في فـترة مـن الفـترات، لكـنى وجـدت أن معظـم الحساسين الذين نقابلهم هم أولئك الأشخاص المنغلقون على ذواتهم..

يلتهمون أنفسهم طيلة الوقت ويرونها محور الكون. مهمتهم أن يشعروا الآخرين أنهم أوغاد وأن يمنحوهم الشعور بالذنب وعدم الراحة للأبد.. يمكنهم أن يسهروا عدة أيام يبكون من أجل كلمة غليظة قيلت لهم، وفي هذا نوع عارم من التلذذ الماسوشي المريض.. لكني تعلمت كذلك أنهم قد يرون طفلاً يموت جوعًا في نشرة أخبار فلا يهتزون شعرة، بينما كنت أحسب الشخص الحساس هو الذي لا ينام بسبب آلام الآخرين..

ها هو ذا الواحد منهم يجلس وحده حزينًا دامع العينين يتذكر في استمتاع مرعب كل الإساءات التي سببها الناس له.. كم هو رائع شفاف.. لا يوجد شيء جيد في العالم.. لا يوجد شيء جميل.. السعادة لا وجود لها على الإطلاق.. كم أن هذا رائع!.. كم أن هذا ممتع!

عندما أراجع المدونات التي تكتبها الفتيات أو الأسماء اللاتي يستعملنها في المنتديات وبرامج الثرثرة (الشات)، فإنني أندهش من الصورة التي ترسمها الفتاة لنفسها عندما تتخذ اسمًا.. الملاك الحساس.. . بسكويتة.. القطة الشقية.. الحلوة..

نرجسية لا توصف.. وإعجاب بالنفس لا حد له. من الصعب أن تقنع نفسك بأن هذه الفتاة تخاطب نفسها وإنما تحسبها عاشقًا يغازل فتاة.. فقط العاشق هو من يطلق على حبيبته اسم (القطة الشقية) أما أن يطلق الشخص على نفسه هذا الاسم، فتصرف غريب يدل على أنه يعانى حالة عشق للنفس مفرطة.. والسبب معروف هو أن كل تلك الفتيات حساسات كذلك! ، لهذا أحمل احترامًا شديدًا للبنات اللاتى يطلقن على أنفسن أسماء مثل (بنت عبيطة) و(مصاصة الدماء) و(النبات السام).. الخ..

ثمة صديقة أرسلت لى خطابًا مهذبًا تطلب فيه أن أكون لها صديقًا وأبًا، فرددت عليها بأننى أرحب طبعًا.. هل يمكنك قول شيء آخر؟.. هنا جاء ردها: "هل فهمت ما أعنيه؟.. أنت كنت مهذبًا وبرغم هذا واضح أنني لا أمثل لديك أية أهمية! ".

رددت عليها في شيء من الحدة قائلاً: " أرجو أن تكوني مكاني.. لم نتبادل سوى خطاب واحد فصارت هناك مشاكل سوء فهم و(قعدات صلح).. الخ. فعلا أنا مررت بهذا الموقف ألف مرة من قبل. قلت إنني سأكون أبًا لك وهذا يشرفني، لكنك تردين بأنني لا أهتم..

طيب.. ماذا أفعل؟.. وفي النهاية أنا أعرف ما سينتهي له الأمر: كنت أحسبك تختلف عن الأغبياء الآخرين، لكن للأسف أنت مثلهم أو ألعن.. نفس الرسالة تلقيتها ألف مرة من قبل ونتيجتها واحدة حتمية. يذكر د. (عادل صادق) تحت عنوان (ألعاب نفسية) نفس اللعبة، ويقول إن نهايتها أن تشعر بأنك غبي لا تفهم والطرف الآخر يستمتع بشعور أنه حساس لا يفهمه أحد! بصراحة الحياة أبسط من هذا.. أنا تحت أمرك في أي شيء. فقط أتمنى من الشخص الحساس أن يرفق بالآخرين كذلك وأن يحاول أن يفهمهم ولو مرة كما يطالبهم بفهمه.. "

الإنسان الحساس يدوس بلا توقف على أقدام الآخرين.. "لا أحد يفهمني.. كلهم أوغاد.. إن ما حدث لى هو شيء فريد لم يحدث مثله من قبل ولا من بعد".. باختصار هؤلاء القوم مرهفو الحس هم زبانية الحياة الدنيا.. يعذبون المحيطين بهم بلا توقف..

ما سيحدث لك يا صديقي الشاب هو أنك ستبحث عن فتاة حساسة، وأنت تشعر بأنك الفارس الشجاع الذي سينقذها من كل هؤلاء الأوغاد.. بعد أعوام ستكشف أنك قد صرت من هؤلاء

الأوغاد! . لا تصدقني؟.. إذن نلتقي بعـد عـشر سنوات لتخبرنـي أو تخبر قبري بما حدث لك!

لعبة لاثنين

أحـزنني بـشدة حـادث ذبـح تلـك الزوجـة والأم المـصرية المحجبة الوديعة على يد خنزير ألماني عنصري متعصب. أعتقد أنـها من الحوادث القليلة التي أشعرت كل بيت في مصر بأنـه فقـد واحـدة من بناته. أمقت التعـصب بجنـون.. بـل إنـني متعـصب في كـراهيتي للتعصب. وهذا الحادث يمثل كل شيء أمقته وأحتقره في الحياة.

هناك دائمًا طرف يحتكـر الـصواب، ويـؤمن أن الطـرف الآخـر الذي لا يشبهه آثم ووجوده على قيد الحياة جريمة في حد ذاتها، ومـا فعله ذلك الخنزير الألماني هو أنه رأى أن المـرأة المحجبـة لا حـق لهـا في الحياة لأنها لا تشبهه، وهو ما نكرره نحن يوميًا على نطاق أضيق.

عرفت دومًا طرفي الطيف وتعاملت معهما.. أذكر أن هناك مـن

علق على قصص (ما وراء الطبيعة) في شك قائلاً: "لماذا لا تضع آيات قرآنية وأحاديث شريفة في القصة؟.. هه ؟". السبب ببساطة هو أن السياق لابد أن يتطلب ذلك، دعك من المرة الوحيدة التي نشرت فيها نص آية قرآنية (نسختها من المصحف نسخًا بداعي التدقيق) فأخطأت المطبعة في جمعها، وما زالت القصة في الأسواق بما فيها من خطأ شنيع مقترن باسمي طبعًا، ولهذا قررت ألا أنشر أية آية مرة أخرى أو أكتفي بذكر رقمها واسم السورة. على الطرف الآخر ذكرت في إحدى القصص أن (رفعت) صلى الفجر، فقال لي صديق آخر في ذكاء الخبير: "كف عن تملق القراء!.. هذا السطر موضوع بالذات لاستجلاب مرضاتهم، ولا أشك في أن هناك قارئًا طلب منك ذلك فكتبته! ". هكذا تجد تربصًا وتحرشًا من الجهتين.. أنت لست متدينًا بما يكفي.. أنت لست علمانيًا وشجاعًا بما يكفي..

يشكو اليساريون دومًا من تعصب الطرف الآخر واحتكاره للحقيقة، لكن هذا الكلام يصلح في الاتجاهين معًا. فلو أنك أبديت نوعًا من الإعجاب بالحجاب فأنت قد وثبت وثبة واسعة للخلف وللماضي.. والأسوأ لو أنك أبديت إعجابًا بالنقاب.. وهكذا تجد أن

لدينا على الطرف الآخر (أيمن ظواهري) آخر، لكنه ليس ملتحيًا بل يدخن الغليون ويقرأ (كافكا) و(سارتر)، ويتحسس مسدسه كلما سمع كلمة (تدين). أذكر غضبة المثقفين على المخرج العظيم (صلاح أبو سيف) عندما قدم فيلم (فجر الإسلام). (صلاح أبو سيف) ذو ميول اشتراكية لم يخفها يومًا، لكن من حقه أن يعجب بموضوع ذي صبغة دينية أو يجد في أيام الإسلام الأولى ما يروق له من تحيز للمهمشين والفقراء.. هذا من حقه، لكنهم لم يغفروا له هذا قط واعتبروها سقطة مروعة، واعتبروا الفيلم أسوأ أفلامه.. هناك دومًا تهمة (الرجعية) أو (الانحياز الأيديولوجي).. والحقيقة أن لعبة الحرية يجب أن تمارس بنفس القوانين مع الفريقين، وأول من يستخدم شيئًا غير عقله وقلمه ولسانه يطبق على نفسه قاعدة (لا حرية لأعداء الحرية).

لست ذا ثقافة دينية متبحرة، ولا أحب أن أتدخل فيما لا أعرفه جيدًا. إن الطب والقانون والدين مجالات يعتبر كل إنسان نفسه خبيرًا فيها، وهذا يثير غيظي. ولهذا السبب لا أستطيع أن أدلي برأيي في فرضية النقاب. أستريح كثيرًا للحجاب الشرعي الذي

نعرفه والذي يذكرنا بزي الفلاحة المصرية، فهو يوحي بالنظافة والطهر، وهو بالطبع يختلف عن حجاب جواري السلطان الشائع اليوم، حيث تلبس الفتاة أضيق وأفحش مما تلبسه أية فتاة غربية ثم تضع قطعة قماش مزينة بالترتر على رأسها، وتعتبر نفسها محجبة وتنعي تدهور الأخلاق في المجتمع. بالنسبة للنقاب أميل لرأي ذكي للشيخ الغزالي يقول فيه: لو كان النقاب فرضًا فلماذا يأمرنا الإسلام بغض البصر؟.. عن أي شيء تغض البصر في مجتمع من المنتقبات؟.. دعك من الأبعاد الإنسانية والأمنية للنقاب طبعًا، حيث يصعب عليك أن تتأكد من شخصية من تتعامل معه..

كانت هذه الخواطر في ذهني، وأنا أحضر حلقة دراسية (سيمنار) عن تشخيص أمراض القلب بالموجات فوق الصوتية، وهو موضوع لا أعرف عنه شيئًا بحكم بعده عن تخصصي. كانت الأستاذة الجامعية التي تقدم السيمنار منتقبة. كانت بارعة فعلاً وقد جعلت هذا الموضوع المعقد يبدو شديد السلاسة والمنطقية. أثناء كلامها دوى آذان الظهر فتوقفت لبضع ثوان ورددت بعض مقاطع الآذان، ثم عادت للشرح.. هكذا بلا مغالاة أو إفراط..

بعد نصف ساعة لم أعد أتابع ما تقول.. كنت أفكر: ما هي المشكلة إذن؟.. هذه سيدة محترمة تجيد عملها، ومن الواضح أن ثيابها لم تعقها عن أداء واجبها أو لعب دور مهم في المجتمع.. إنها تعرف ما تتكلم عنه وتنقله بأمانة لمن لا يعرفون.. والنتيجة هي أن تقنية غربية بالغة التقدم تتحول إلى خبرة عادية للطبيب العربي الشاب.

الحقيقة أنك عندما ترى فتاة منتقبة تفترض تلقائيًا أنها لا تؤدي عملها جيدًا أو لا تقدر على أدائه، وانها تمثل بالضبط ضد العلم وضد الحضارة. لكن هذه الطبيبة تبرهن لي على أنني مخطئ وأنني – مهما زعمت – لعبت بدوري لعبة التعصب..

من حقها إذن أن تلبس ما تريد وهذا صميم حريتها الشخصية، بشروط أعتقد أنها تحققها فعلاً:

1- أن تؤدي عملها جيدًا وأن تعرف قيمة العلم وتحترمه؛ فلا تدعو لنبذ الإنسولين من أجل البردقوش، ولا تقضي الوقت في الدعاية لقطرة العيون المستخلصة من العرق والتي تعالج داء الكاتاراكت، بينما كل أستاذ عيون حقيقي يعرف أن هذا كلام فارغ.

2- أن تكون عادلة وأن تعامل (إيريني) و(فكتور) وتمتحنهما على قدر العلم الموجود في رأسيهما وليس على حجم وشم الصليب على معصميهما.

3- ألا تتعالى عليّ باعتبارها ضمنتْ مكانها في الجنة وضمنتْ مكاني في النار. يجب ألا تتكلم باعتبار كلماتها مقدسة ما لم تكن تستعمل نصوصًا مقدسة طبعًا.

هل حققت لنا هذه الشروط ؟

نعم ؟

إذن لماذا الضوضاء بالله عليك ؟ ولماذا لا نتكلم عن شيء آخر أكثر نفعًا ؟

بالفعل نحن لا نكف عن افتعال المعارك والبحث عن المشاكل في كل شيء.. لا نكف عن ركل الغبار ليعمي عيوننا. دعنا من النقاب لأنه موضوع ذو حساسية خاصة، ولنتكلم عن الحجاب العادي.. كانت هناك مشاكل عنيفة حول الحجاب فيما سبق، برغم أنك لو لم تعتبره زيًا دينيًا فهو يوشك على أن يكون زيًا شعبيًا للمرأة العربية.

في حفل الأوسكار الذي نال فيه (أ. رحمن) أوسكار أفضل أغنية وموسيقا تصويرية، كان يلبس ثيابًا هندية بالغة الأناقة، والنساء كن يلبسن الساري مع لمسة عصرية محببة.. تخيل كم كان سيبدو سخيفًا كالقرد لو ارتدى بذلة السهرة والبابيون مثل الباقين.. بزيه الهندي بدا أكثر أصالة وأناقة وتميزًا.. . لا أحد يتكلم عن الهنديات الماشيات بالساري في عواصم العالم، ولا عن سائقي تاكسي نيويورك السيخ ذوي العمامة الضخمة.. لا أحد يتكلم عن طاقية اليهود ولا شيلوار الباكستانيين ولا كلتية السكوتلنديين. فما هي المشكلة في أن تلبس المرأة العربية هذا الزي الذي يعبر عن تراثها وشخصيتها وثقافتها ؟ وهل تضمن لي أن التخلي عن الحجاب يحقق التفوق ونهضة الأمة واسترجاع لواء الأسكندرونه ؟

ومن جديد أنا لا أنحاز إلا لما يروق لي، ولا أحسب نفسي على أي طرف من الأطراف، وهذه هي المشكلة وعليك أن تتحمل النتائج.. أنت لا تصير صديق الجميع أبدًا وإنما أنت مهدد دومًا بأن تخسر الجميع !

أن تكتب في البيت...

أنا أكتب في البيت..

الأمر يعود لمشكلة ضميرية، تتعلق بترك زوجتي وحدها مع وحشين صغيرين مفترسين لا يكفان عن العراك والشكوى والطلب. هذه قسوة لا توصف.. كل مؤلف أعرفه له مكان منعزل هادئ يكتب فيه، ومنهم من لجأ إلى المقابر مثل عمنا العبقري خيري شلبي. لكني ما زلت أجد نوعًا من التحذلق والإدعاء في أن أترك البيت كل صباح وأذهب للكتابة ثم أعود في المساء.. يعني دستويفسكي يا خي؟.. دعك بالطبع من أن زوجتي ستجد الفكرة سخيفة.. أوشك أن أسمعها تقول لصديقتها على الهاتف:

ـ" البيه واخد شقة لنفسه عشان يكتب! .. آل يكتب آل! "

ومن قال إن سمعة الرجل غير مهددة، وإنها ليست كعود الثقاب الذي لا يشتعل إلا مرة واحدة؟.. إذا كنت تعتقد أن هذا الكلام للنساء فقط فأنا أهنئك.. أنت ستكون أديبًا عظيمًا..

هكذا أقرر أن أكتب في البيت، وهنا تأتي المشكلة التالية: لقد اعتدت الكتابة على الكمبيوتر، بحيث صرت فعلاً أجد عسرًا في الإمساك بالقلم، وهناك في البيت جهاز كمبيوتر واحد.. والسبب؟.. أعتقد دومًا أنه من الخطر ترك مراهق وحده مع جهاز الكمبيوتر خاصة في عصر الإنترنت، حيث يكفي أن تكتب بضعة حروف مثل (وبييعمتنغقكبقبغ) لتجد نفسك في ألعن موقع بورنو عرفته الشبكة. أكتب (vdsrsrhgdgdhgdmmnnnb) ولسوف تجد نفسك في موقع لهواة أكل لحوم الموتى بعد اغتصابهم، أو موقع لهواة العلاقات المشينة مع سحلية الأجوانا. ذات مرة تركت ابنتي الصغيرة تلعب أمام الكمبيوتر وخرجت.. عدت لأجدها توشك على استكشاف موقع قادها له إعلان تلو إعلان تلو إعلان.. أدركت في هلع أنه موقع مخصص للثرثرة بين المصابين بانحرافات جنسية.. هكذا لم أغلق النت.. أغلقت الجهاز والحجرة ذاتها وخرجنا نشم الهواء..

لا أثق في برامج الرقابة على الإنترنت مثل (سايبر باترول) و(نت ناني) لأن الثغرات تحدث.. لهذا أحب أن يستخدم أطفالي الجهاز وأنا بجوارهم والغرفة مفتوحة، ولنفس السبب لا أستعمل في البيت سوى جهاز كمبيوتر واحد فلا تحسبن أن البخل هو السبب.

المشكلة هنا أن الإنترنت مغرية جدًا ومليئة بالألعاب الشائقة.. والمشكلة الأسوأ أنني أستعمل ذات الجهاز للكتابة.. كل ما يختص بعملي أضعه عليه من أول قصة كتبتها حتى هذا المقال، ومن رسالة الماجستير حتى آخر بحث لم ينشر بعد. من هنا تنشأ كارثة في البيت..

إن ابنتي تدخل الحجرة.. تقف بجواري في ملل.. تعبث في الأقلام على المكتب.. تدور من حولي.. أسألها عما هنالك فتقول:

ـ"أنتظر أن تنتهي!.. أريد أن ألعب"

أقول لها إنني سأمضي وقتًا طويلاً جدًا.. لا أعرف متى أنتهي.

كيف كنا – معشر الكهول – نعيش من دون كمبيوتر ؟ (عشت كذلك دون تلفزيون حتى سن العاشرة).. لابد أننا عشنا طفولة

شبيهة بطفولة الكلاب إذن. التعبير على وجه ابنتي يوحي بأنني أحرمها حقها في الأكل والشرب أو التنفس.. أب قاس شرير أنا..

بعد ربع ساعة تنصرف آسفة، ليظهر ابني الذي يريد أن يكلم زملاءه على برنامج (مسنجر).. يدور في الغرفة ويجلس على المقعد ويعبث بالأقلام، ثم يسألني في ضجر:

ـ"ألا تنوي أن تخرج أو تنام ؟"

ـ"نعم.. لاحظ أنني أقوم بالتأليف.. وهذا يستغرق وقتًا لأنه عملية خلق إبداعية ولا يوجد زر نضغط عليه كي.. ...."

لا يبدو راغبًا في سماع شيء عن آليات الإبداع.. يريد الجهاز فقط، ثم هو مقتنع أن الأمر ليس بهذه الأهمية والخطورة.. وأنا بالتأكيد لست تولستوي، وإلا لعرف هذا أو لرآني أصافح ملك السويد وأنا أتسلم جائزة نوبل.. لو كنت ناجحًا لهذا الحد فلماذا لم أبتع كمبيوتر آخر ؟... يظل يراقبني لمدة طويلة ثم يسألني:

ـ"ألاحظ أنك لا تكتب أي شيء! "

أصيح في جنون.. أنا أفكر!.. أفكر!.. لست موظفًا في مكتب نسخ.. وكيف أفكر بينما هناك من يراقبني منتظرًا أن أفكر؟.. لو

كنت (شكسبير) نفسه فلن أكتب حرفًا بهذه الطريقة..

أنهض للحمام – وهو حق فسيولوجي كما تعلم – وأعود بعد دقيقة لأسمع الصخب، ولأجد سيركًا قد نُصب في مكتبي فلا ينقصني إلا أن أبتاع تذكرة على الباب.. بوم بوم كراش فززز!.. ابنتي تقهقه وابني يصرخ منتشيًا، بينما على الشاشة أرنب عملاق يطارد جزرًا يطير في كل مكان.. أو غزاة فضاء لونهم أخضر يطاردون بشرًا مذعورين.. المهم أن هناك الكثير من الـ (بوم بوم كراش فززز!)..

أسألهما وسط الضوضاء:

-"مللبسيسسسسس ؟"

-"ماذا ؟"

-"هل قمتما بتسجيل ما كنت قد كتبته ؟"

-"لا.. "

وبالطبع لا توجد طريقة للخروج من هذه اللعبة بالذات سوى بإطفاء الجهاز ونسف ما كنت أكتبه.

هكذا أصرخ فيهما وأطردهما كالذباب من الغرفة. طبعًا هناك

حل ممتاز هو وضع مزلاج على الباب من الداخل، لكن زوجتي سوف تتضايق من هذا الحل باعتباري أسجن نفسي وأتركها وحيدة مع هذين الغولين الصغيرين.. لابد أنني أريد الشات مع البنات المايصة.. هي لا تحب الكمبيوتر ولا تستعمله وتشك فيه، وتعتبره كتلة من الانحراف والفساد الذي تم تجميده.. إذن لماذا يطالب زوجها بأن يجلس وحده مع هذا الجهاز الشنيع ؟...

كما ترى ليس أمامي سوى حل المزلاج، أو حل شراء كمبيوتر خاص بالطفلين مع ما في ذلك من خطر، أو أن أجد مهنة أخرى غير الكتابة، أو أن أكتب في المقابر، أو أن أنتحر.. كلها حلول غير مرضية فهل عندك حل سادس ؟

خصوصيتنا.. حماها الله

يكثر الكلام عن (خصوصية المجتمع المصري) و(خصوصية التجربة المصرية)، كلما طالب أحدهم بإصلاحات ديمقراطية أو تعديلات دستورية، وهنا تصيح الحكومة: "لنا خصوصية يا كابتن.. نحن لا يمكن أن نقلد الغرب تقليدًا أعمى". لكني بالفعل مقتنع بموضوع الخصوصية هذا في أمور أخرى غير الديمقراطية..

بالفعل نحن نسيج فريد بين شعوب العالم. الشعب الذي ينخفض عنده سعر الدولار فترتفع فاتورة الواردات.. تهبط أسعار السلع في العالم كله بسبب الأزمة الاقتصادية فتثب هنا.. تهرب المليارات للخارج ويجدد المسئولون مكاتبهم بالملايين، ثم تطالبك وسائل الإعلام بألا تشرب شايًا وأن تضع على الفول زيتًا أقل، وإلا

فأنت سفيه وسبب الأزمة الاقتصادية. ولهذا نجد أن لنا خصوصية فعلاً وأن الحلول العالمية لا تناسبنا على طول الخط. مثلاً يرى خبراء البنوك أن خفض سعر الفائدة حل مناسب للعالم، لكنه غير مناسب في مصر على الإطلاق..

الأسبوع الماضي هاجمت مباحث المصنفات شركة الكابل في شارعنا. بعبارة أخرى (لصوص الديش)، وهم مجموعة من الشباب يقومون باستخدام عدة مستقبلات ويشتركون في عدة شبكات، ثم يقومون بتوزيع باقة مختارة من القنوات على بيوت الناس والمحلات مقابل مبلغ شهري زهيد. يجب أن أوضح هنا وأؤكد إنني مشترك رسميًا في شبكة (آرت)، ومطيع جدًا لمشايخ الفضائيات الذين يوصون بعدم استعمال الوصلة التي تقلل من أرباح الشيخ (صالح). لكن إذا فكرنا في الموضوع أكثر من مرة وجدنا أن مصر بحاجة لاستثناء من هذا الموضوع.. أولاً هذه الشركات تمنح فرصة عمل شريفة لعدد لا بأس به من الشباب، ولولاها لزاد عدد من يهاجمون المارة بمطاوي قرن الغزال زيادة فلكية. ثانيًا هي فعلاً جعلت الجميع يشاهد الجزيرة ودريم و(أنيمال بلانت) وحتى القنوات الدينية..

باختصار تمدد وعي المشاهد المصري حتى بائعة الخضر والجزار والإسكافي، وهؤلاء ما كانوا ليهتمون بشراء ديش طبعًا. فهل هذه هي المشكلة فعلاً؟.. مشكلة الفرار من وضعية (المخ داخل وعاء زجاجي Brain in a vat) إلى العالم الرحب؟. الموضوع ليس حقوق الملكية الفكرية إذن وإنما هو السيطرة على تدفق المعلومات.

فإذا تركنا الكابل إلى عالم الكمبيوتر والبرمجيات، لصادفنا مشكلة أخطر.. ماذا سيحدث لمصر لو حُرّم نسخ البرامج تمامًا؟.. أعتقد أن الشركات الكبرى تصاب بالذهول عندما تكتشف أن مصر كلها تتعامل ببرامجها، بينما بيعت نسختان فقط من كل برنامج في مصر كلها!. بعض البرامج الأصلية ثمنها أغلى من جهاز الكمبيوتر نفسه، وقد أصابني الهلع عندما قمت بحساب ثمن نسخة أصلية من النوافذ ونسخة أصلية من مكتب ميكروسوفت ونسخة أصلية من مضاد فيروسات. ماذا سيبقى في مصر وإلى أين ستذهب ثقافة الكمبيوتر لو تعاملنا مع القانون حرفيًا؟.. حتى الكمبيوتر في مباحث المصنفات عليه برامج منسوخة.. مستحيل أن يحدث العكس.. للأسف نكتشف هنا أن القرصنة جعلت كل شاب في مصر يجيد

استعمال الكمبيوتر والإنترنت.. صحيح أنه غالبا استخدام خاطئ غير مفيد، لكنه شأن لغة الكلام.. قد تستعملها للسباب أو للوعظ.. المهم أن تتكلم أولاً..

وماذا عن سرقة الكتب؟.. قبل أن تتكلم تذكر أنني من أوائل المتضررين من سرقة الكتب على النت، ومبيعاتي قد انخفضت بشكل كبير، لهذا أتكلم وأنا أعرف مشاعر الضحية. إن القراء على النت لا يعرفون أنهم يذبحون الدجاجة التي تبيض، وأن مشروع الروايات نفسه صار مهددًا، لكني برغم هذا أرى أن المبدأ ليس مرفوضًا بالكامل بالنسبة للكتب الغربية الممنوعة أو النادرة أو باهظة الثمن جدًا.. أنا أتكلم إذن عن نتاج الفكر الغربي بالذات.. أرجو أن تحاول حساب المبالغ التي يدينون بها لنا مقابل كل ما سرقته بريطانيا وفرنسا من قطن وآثار لا تقدر بثمن.. بكم يقدر ثمن حجر رشيد وكم سعر رأس نفرتيتي والمسلة في ميدان الكونكورد؟. بكم كل النفط الذي سرقوه من دول الخليج وأجور العمال الذين حفروا قناة السويس، وأجور العبيد الأفارقة الذين خطفتهم الولايات المتحدة ليعملوا في حقول القطن هناك؟. ليس السارق الوحيد هو من ينسخ كتابًا متداولاً

على الإنترنت. وعلى كل حال كم يشكل من يقرءون باللغات الغربية في العالم العربي؟.. وما تهديدهم لأرباح الكاتب الذي لا يضعهم في الحسبان أصلاً؟.. عندما جاء (باولو كويليو) إلى مصر يرغي ويزبد مطالبًا بأرباح رواية (السيميائي) تبين له أن الأمر لا يستحق هذه الضوضاء، وأن القرصنة على روايته جعلت كل قراء العربية يعرفونه.. لهذا لم يتخذ أي إجراء قانوني وعاد لبلاده. أي أنه تبنى منطقي هذا في النهاية..

الأفلام كذلك عالم آخر.. إن سيد السرقة في العالم شخص مجهول لا يعرف أحد على النت جنسيته ولا اسمه ولا وجهه، لكنه يرمز لنفسه باسم Axxo.. إنجليزيته بها بعض الأخطاء مما يشي بأنه لا يتكلم الإنجليزية أصلاً. طبعًا لو عرفوا وجهه لمزقوه إربًا ولرفع المنتجون عليه قضايا بالمليارات. هذا الرجل هو روبين هود العصر الحديث الذي يأخذ من المنتجين الأثرياء ليعطي المشاهدين الفقراء، وقد اختفى لفترة فتصاعدت الصلوات والابتهالات عبر النت تدعو له بأن يعود.. هذا الرجل جدير فعلاً بفيلم كامل ينتمي لقصص السايبر بانك. ولا أعرف لماذا لم يفكر أحد في ذلك

حتى اليوم. البديل لهذا هو أن تشتري الأفلام الأصلية بمبلغ لا يقل عن 180 جنيهًا للفيلم الواحد.. طبعًا مستحيل. أنا أجد أن المشاهد الغربي لن يُرهق كثيرًا بدفع مبلغ كهذا، وفي الوقت ذاته هو يضخ المال الكافي كي تستمر العملية الإنتاجية، فيقدم الفنانون مزيدًا من الأعمال الجيدة. لكن الأمر يختلف في مصر بسبب خصوصيتها التي تكلمت عنها، وعلى كل حال جمهور السينما هو جمهور السينما لم ينكمش. بينما صارت لدى الشباب المصري ثقافة سينمائية لا بأس بها تتضمن السينما الصينية والألمانية والفرنسية واليابانية وقد أثروا تجربتهم فعلاً، وهناك أكثر من مخرج مصري شاب تكونت ثقافته من السينما المكسيكية بالذات.. وأكرر أنني أتحدث عن فن السينما الحقيقي وليس عن (مشهد لا يفوتكم.. تعالوا لتشاهدوا الفنانة عزيزة جُنَح عارية في الفراش مع الفنان سيد سوابق). هذا النوع من الثقافة لا يلزمنا ولن نخسر الكثير لو حُرمنا منه!

القضية معقدة فعلاً.. لكن اتهام القراصنة بأنهم قراصنة ليس الحل الأمثل للمشكلة، ومعظم من يتكلمون عن الأمانة يكتبون آراءهم هذه على أجهزة كمبيوتر عليها نسخ مسروقة من مكتب

ميكروسوفت والنوافذ. هناك دول ستغرق بالكامل في مستنقع الجهل لو طبقنا عليها القانون حرفيًا.

ما أراه هو أن دخل الفرد في الدولة يجب أن يكون هو مقياس التعامل مع هذه الجرائم... دخل الفرد ووضع الدولة الاقتصادي ومؤشرات التنمية بها، بنفس المنطق الذي عطلت فيه الحدود في عام الرمادة والقياس مع الفارق طبعًا. بل إنني أدعو إلى أن تتبنى الدولة عملية القرصنة هذه فتوفر هذه المصادر بسعر رخيص للناس، وتسدد جزءًا من حقوق صاحب الملكية الفكرية.

نعم.. إن لنا خصوصية لا شك في هذا.. خصوصية في ظروف الفقر وفي معيشة الناس، لهذا أطالب بخصوصية في تطبيق هذه القوانين.. فإذا أرغمتنا الاتفاقات الدولية على العكس فإنني أطالب بأجور العمال الذين حفروا قناة السويس (على داير مليم).

د. أحمد خالد توفيق

الغث من القول

نشرتُ هذه المقالات في أماكن متفرقة؛ وإن كان معظمها في جريدة الدستور قبل اغتيالها، وفي موقع (بص وطل) على شبكة الإنترنت. يمكنك أن تجد كل حرف كتبته على شبكة الإنترنت، لكنني في النهاية ابن الكتاب وربيبه، ولا أؤمن أنني كتبت شيئًا ما لم أمسك به مطبوعًا على ورق جميل .. تضع خطًا أو تثني صفحة أو تسكب كوب الشاي على الصفحة. هذا هو اختراع الخواجة (جوتنبرج) في كامل عنفوانه ومجده. لا يمكنك
بالشيء ذاته في الفضاء السايبري حيث أفكارك مجرد
الكترونية وتباديل بين علامة الواحد والصفر.
الحاجة البشرية الطبيعية لأن تضع كل أو
سقف واحد.



